2269
.39543
.334

2269.39543.334
Habib
Fi al-ard al-muqaddasah

DATE

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072535618

في الأرض المقدسة

(بين مصر والحجاز)

بقلم

ابراهيم محمد حبيب

المفتش بوزارة الداخلية

حالا

وعضو مجلس النواب

والقاضي بالمحاكم الوطنية

ومدير تحقيق الشخصية

سابقا

Habīb, Ibrāhīm

فى الأرض المقدسة

(بين مصر والحجاز)

Fī al-arḍ al-muqaddasah

بقلم

ابراهيم محمد حبيب

المفتش بوزارة الداخلية

حالا

وعضو مجلس النواب

والقاضى بالمحاكم الوطنية

ومدير تحقيق الشخصية

سابقا

راجعته ووقفت على طبعه جامعة القلم

٥٣ شارع ابراهيم باشا بالقاهرة

مطبعة العالم العربى بالقاهرة

الادارة: ٥٣ شارع ابراهيم باشا (امام شبرد) ت ٤٧٠٦

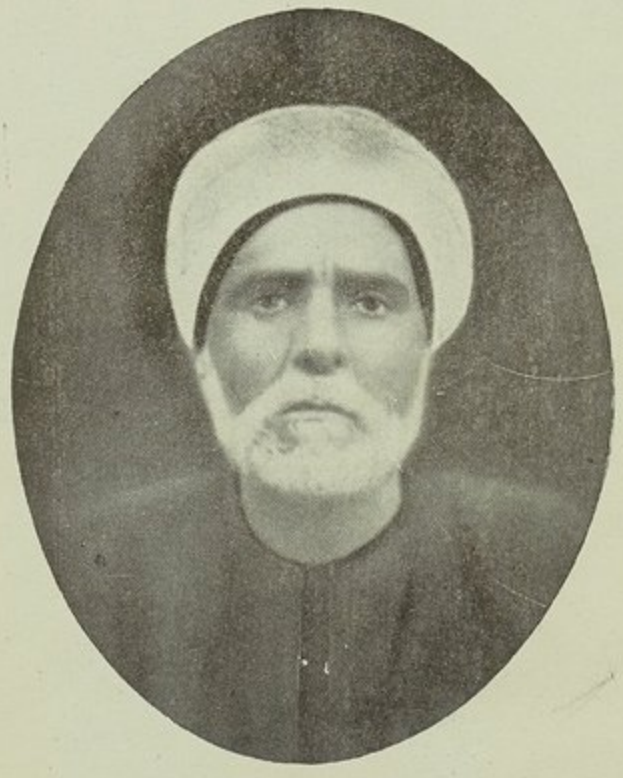

شيخ العرب محمد حسن حبيب

(والد المؤلف)

2269
.39543
334

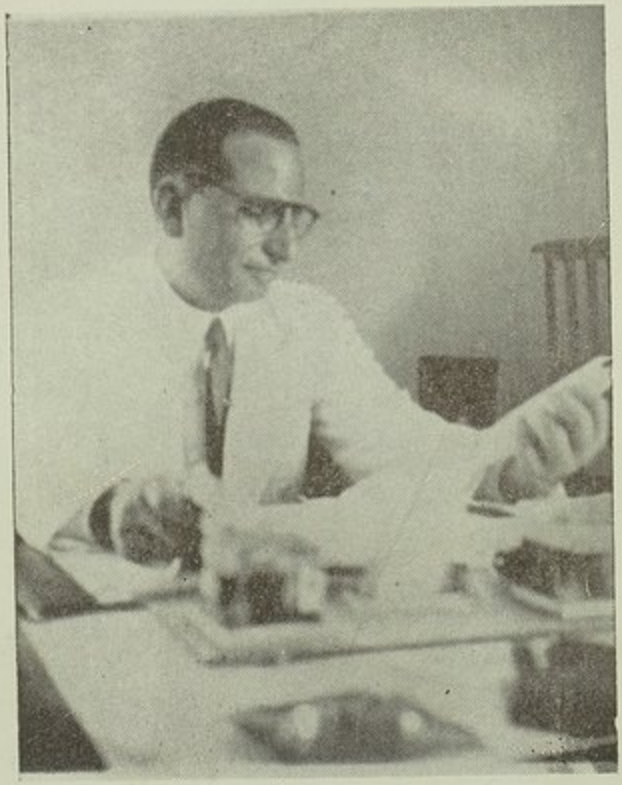

المؤلف وهو يقرأ فى كتاب

إلى أبى :

الذى كان سبب وجودى . . . .

والذى هذبنى ورعانى . . . . . .

والذى استصحبنى فى هذه الرحلة المباركة

أهدى هذا الكتاب ؟

المؤلف

تقديم

كنا أترابا فى قرية واحدة ، جمعتنا النشأة واللعب ، ثم نظمتنا المدرسة الأولية فى سلك واحد .

فلما أتممنا المرحلة الأولية سارع هو إلى الالتحاق بالمدرسة الابتدائية ، واتجهت إلى المعهد الدينى ، فافترقنا . كنت لا ألقاه إلا فى الإجازات الموسمية والسنوية . ومع أنه من أبناء الأعيان فقد نشأ بيننا ميل فطرى إلى اللقاء والصحبة يختلف عن ميلى الى الأتراب الآخرين ، ما كنت أعرف مصدره ، ولعله هو الآخر ما كان يعرف مأتاه ، وظننت ان ذلك الميل الفطرى تعدو عليه الأيام حين نفترق لإتمام دراستنا ، ولكنى رأيت الأيام تزيده توثيقا وارتباطا ، كنا كلما كبرنا ازداد الإخاء وتوطدت أواصر الصحبة ، وأخذ كل منا يستقبل وجه الحياة بفطرته واستعداده .

اختلفت الطريقة التى يواجه كل منا بها حياته ، فهو يواجهها بأسلوب أبناء المدارس ، وأنا اتقبلها بطريقة أبناء المعاهد ، فكنا اذا التقينا اشتد بيننا الجدل أحيانا ، لكنه على فرط اشتداده لم يعكر صفو الصداقة التى ثبتت شجرتها على الأيام ، بل لقد كنت ألحظ أن عنفى فى بعض الآراء يزيده تشبثا بصداقتى وإخائى .

وأتممت دراستى التى كانت مرحلتها قصيرة ، والتحقت بالصحافة ، وكأنه غبطنى على هذا التوجه ، وفرح بهذا المنهج الذى اخترته وحدى ، وكان هو ما يزال طالبا فى المدارس الثانوية ثم التحق بعدها بمدرسة الحقوق ، فازدادت صلتنا بهاء وتعاونا ، كان يحب ان يرانى ويرى ماجد على عقلى من تطور واتساع ، وكنت حريصا على أن أزوره وأشبع روحى بالعاطفة المثالية التى نشأ يغمرنى بها .

ودلف الى المحاماة وبدا له نشاط ملحوظ فى الكتابة الاصلاحية كنت ألمس فى ثناياه حياة نابضة قوية ، ثم نال شهرة شجعته على أن يرشح نفسه لعضوية البرلمان ، ثم لم يرض عن الحياة النيابية اذ ذاك ، فقنع بوظيفة وكيل نيابة ، ودارت الأيام فإذا هو قاض ، ثم اذا هو بعد ذلك مدير ادارة تحقيق الشخصية ، ثم اذا هو مفتش بوزارة الداخلية .

ذلك هو الأستاذ ابراهيم محمد حبيب . مؤلف هذا الكتاب . لم أعرفه فى حفل ، أو فى سفر أو فى اية مناسبة من المناسبات التى تؤسس العلاقات العصرية ، ولكنى عرفته صبيا يلاعبنى وألاعبه ثم تلميذا ينافسنى وأنافسه ، وما زلنا منذ فجر الحياة الى اليوم نستقبل الحياة ، ونقبل خيرها وشرها باسمين .

أما هو فقد وفق فى ربيع عمره الى أداء فريضة الحج ، رغم شواغله ورغم مباهج الحياة التى تحيط به وتصرف أمثاله عنه وكتب عنها هذا الكتاب الذى رأيت أنه يصلح للنشر ، وحسبى أن أقول إننى عرفته منذ عرفته يجرى على سجيته

فى حب الحياة والناس ، لا تجد فى طريقته اصطناعا ولا تعملا ، يبذل أقصى جهده فى سبيل الخير الذى يؤمن به ، ويحرص على ارضاء الله ، وبر والديه وأسرته وكل من يتصل به من الاحياء . ويحب الإنتاج الفكرى حبا يفنى فيه بكل قواه .

وقد استطاع أن ينحو فى عرض هذا الكتاب نحوا شيقا ، يهز أوتار القلوب ، ويؤثر فى النفوس ويهيئها للوجدانات العلوية فى كل موقف من المواقف التى تفيض رهبة وجلالا وخشوعا وتسمو بها عن كل أعراض الدنيا لتفنى فى ذات الله جل جلاله .

ولهذا كله ، ولأن موضوع الكتاب مثار وجدانات دينية حبيبة الى قلوب المسلمين كافة ، ودعوة يسيرة الاستجابة لتحقيق العطف والمرحمة لشعب تكفل الله جل شأنه فى محكم آيه بحنين القلوب اليه ، لتيسير رزقه فى مقره المقدس ، جهدت فى إخراجه .

وحسبى ، وفاء للصداقة التى نبتت مع الصبا ، وازدهرت على مر السنين ، وتحية من روحى المشوقة للبيت العتيق ، ولآله الذين لهم عند المسلمين أعز مقام ، وحبا لله ذى الجلال الذى جعل مكة أشرف البقاع ، وتلبية لأسمى اغراض المسلمين ، ما بذلت من جهد فى إخراج هـذا الكتاب ، والله على ما أقول شهيد .

على محمد بركة
سكرتير جامعة القلم

هذا الكتاب

لم أكن حين سافرت إلى الأراضى الحجازية فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٨ ، لأداء فريضة الحج ، قد اعتزمت تدوين هذه الرحلة ، فما احتفظت به من مذكرات عنها لم احتفظ به أساسا للنشر ، ولكن عند ما عدت فى الرابع من شهر مارس ذلك العام لقيت وزير العدل يومئذ فأشار على بنشرها ، فبدأت أنشرها فى «السياسة الاسبوعية» التى كان صدورها إذ ذاك يتوالى تحت عنوان « بين مصر والحجاز » .

ومنذ عامين أشار علىّ « الأستاذ على محمد بركة » سكرتير جامعة القلم بجمع هذه المقالات فى كتاب تسجيلا لها ، ووفاء للأرض المقدسة التى كتبت عنها ، وبراً بأهلها وبمن يستحقون التنويه من رجالاتها ، وكنت كلما هممت بذلك عاقتنى مشاغل الوظيفة وأعباء أخرى كانت تستنفد كل وقتى وتفكيرى ، ولكنى فى هذا العام صحت عزيمتى على إخراجها فى كتاب ، تيمنا بها ، ومساهمة فى الاشادة بفضل الحجازيين ونشاطهم الذى بدأ يتجه نحو الاصلاح والوثوب الى التقدم السريع فى كل النواحى ، ولاطمئنانى للإخلاص والعناية والتعهد العلمى والفنى الذى أخذت تساهم به « جامعة القلم » فى خدمة المؤلفين والمؤلفات .

ورأيت أن انهج فى كتابة هذا المؤلف نهجا قصصيا، ليكون سهل التناول، شيق العرض، وحرصت على ذكر المناسك الدينية فى مكان أدائها ووقته، كما رأيت ان اعرض هذه المناسك فى نهاية الكتاب عرضا مجملا مرتبا لتسهل مراجعتها والاسترشاد بها اثناء الحج لمن أراد.

ولا يفوتنى ان أسجل ان القطر الحجازى قد جدت فيه بعد أدائى الحج فى سنة ١٩٣٨ اصلاحات عمرانية هامة بفضل جلالة مليكها الدائب على ترقية هذه البلاد، ونشر الأمن والإصلاح بين ربوعها، ولهذا فإننى جمعت هذه الاصلاحات ودونتها كذلك فى نهاية الكتاب، كما لا يفوتنى أن أنوه بما كان لنفحات استاذى وصديق العالم السيد محمود ابو الفيض المنوفى ولحسن صحبته من أثر فى إخراج هذا الكتاب.

وانى اسأل الله ان أكون بهذا النشر قد أديت بعض الواجب على لمن تهفو قلوبهم الى الأراضى المقدسة التى أنزل فيها القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

المؤلف

ابراهيم محمد حبيب

محمد صلى الله عليه وسلم

محمد عليه السلام هو محور هذا الكتاب ، فهو الذى طهر الكعبة من الأصنام، وهو الذى أنشأ الحرم المدنى ، وهو الذى نزل عليه الوحى ان الحج فرض من الفرائض وركن من أركان الإسلام ، وهو الذى انزل الله عليه قوله الكريم « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » وهو الذى قال « ياأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » وهو القائل « من لم تمنعه من ذلك حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » .

فمحور هذه الرسالة هو محمد عليه الصلاة والسلام . وفى محمد كتبت مقالات طوال ، وأسفار ضخام ، فهو ملء مكة ، وملء المدينة ، وملء الحجاز كلها ، وملء الدنيا بأجمعها ، حتى الذين ما يزالون يتشبثون بأديان أخرى أخذوا بتشريعاته وجروا على تعاليم دينه ، فلست الآن بصدد ذكر حياته وأثر رسالته . لكن فى مثل هذا الكتاب — ومحمد أكبر حافز على كل ما سطر فيه — ينبغى أن يفتتح بإلمامة قصيرة عن تاريخه الحافل .

لقد اشتدت الحياة على محمد شدة لم تلازم رجلا ممن اختارهم الله لهداية الخلق ، فقد أدركته وهو طفل ، ولاحقته وهو صبي ، وامتدت إليه وهو رجل ، ولازمته حتى لقي ربه بعد جهاد عنيف. وكان صلى الله عليه وسلم يتقبل كل صنوف الشدائد والمحن بصدر أرحب من الأفق الواسع ، ونفس مطمئنة واثقة انه يجاهد لدين الله وإعلاء لكلمته ، فأدى رسالته كاملة ، فصار دينه هديا ونبراسا خالدا فى العالمين على الايام والأجيال .

* * *

هاهو عبد الله بن عبد المطلب يبنى بآمنة فما يكاد يستودعها محمدا حتى يغادرها فى سفر إلى الشام يلتمس من تجارتها الكسب والغنى ، فإذا المنية تدركه ، وإذا الموت ينشب فيه أظفاره قبل أن يعود إلى داره ، ويولد محمد فلا يرى له أبا ، ثم ترضعه حليمة فى مضارب بنى سعد حتى إذا ترعرع عاد إلى مكة ، وإذ تقع عليه عين أمه يجدد فى نفسها ذكرى أبيه فتتوجه لتزور قبره ومحمد معها ، ثم لا تلبث أثناء عودتها من هذه الزورة أن تعتريها العلة ويلازمها الألم فتقضى نحبها فى الطريق .

ويعود محمد إلى مكة فقيد الأم والأب . ويكفله جده عبد المطلب ، ويضفى عليه من الرعاية والحب ما لم يضفه جد على حفيد ، ولكن الموت يختطف هذا الجد أيضا ويترك محمدا فى كفالة عمه أبى طالب .

* * *

تلك هى المحن والأحداث التى ألمت بمحمد طفلا ولا حقته غلاما فيصمد لها ويترعرع فى أحضانها برعاية الله وحده الذى خلقه للرسالة العظمى وهيأه لها منذ نشأ ، فهو يحبب إليه رعاية أغنام عمه وأغنام طائفة من أهله تمهيدا لرعاية العرب كلهم ثم الإنسانية جمعاء .

واستمر هكذا قوى النفس ، رضى الخلق ، عف اللسان ، عف البصر ، امتحنته الأيام بعنف فصمد لها ، ولوحت له بالنعمة فامتنع عليها ، وكأنه كان يجرى فى ذلك الوقت على نهج لم يكشف له بيانه .

واصطفته خديجة بنت خويلد لتبعثه على تجارتها إلى الشام حتى إذا عاد من هذه التجارة موفقا أعظم توفيق أرادت مضاعفة أجره فأبى أن يأخذ أكثر مما عاهدها عليه ، وكان له فى نفس خديجة أثر شغلها واحتل من نفسها كل فراغ . فكرت أن تقترن به ، ثم استبعدت ذلك لكبر سنها . لكن الفكرة استبدت بها فأرسلت إليه احدى صديقاتها لتعرض عليه ذلك فشكا قلة ماله فذللت له ذلك ، وتكفلت بإعداد نفسها لهذا الزواج ، فعرض ذلك الأمر على عمه أبى طالب فأقره وتزوجها بعد أن دفع عمه أبو طالب مهرها عنه .

وذات يوم وجد معتكفا بغار فى جبل حراء ، ثم عاد إلى مكة

فأخذ يطوف بالبيت ويعجب لتلك الأصنام التى تعبدها قريش وغير قريش . ثم استمر يتردد على الغار ويعود إلى مكة ، ولكنه يعود ذات يوم من غار حراء مرتجفا يطلب فراشا وغطاء وينام حتى إذا صحا من نومه سألته خديجة عما أصابه فيقول : إنى لفى حراء أتعبد إذ هبط على شخص من السماء ودنا منى وهو يقول : أبشر يا محمد ، أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة فخفت منه أشد الخوف وخشيت على نفسى . ثم دنا منى وقال : أقرأ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى وغطنى بالنمط الذى أنام عليه حتى بلغ منى الجهد مبلغه ، ثم ارسلنى وقال اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء فأخذنى وغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ثم قال « وإنى لأخشى على نفسى يا خديجة » فقالت له والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل فقال إنه الناموس الأكبر الذى نزل على موسى وعيسى ، ثم مال على محمد وقال : « والله لتؤذين ولتخرجن من هـــذا البلد » فقال محمد : ومن يخرجنى « قال يخرجك قومك قال « أو مخرجىّ هم » قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا »

ودعا محمد إلى الدين الجديد ، واشتدت عليه قسوة قريش كما اشتدوا على مناصريه وساموهم أنواع العذاب ، وكانوا كلما ازدادوا بهم تنكيلا ازدادوا بمحمد وبدينه تمسكا ، وائتمروا على قتله وعرف محمد خبر هذه المؤامرة فأتى بعلى بن أبى طالب وارقده فى مكانه ثم خرج مع أبى بكر والمؤتمرون بالباب فى نوم عميق فلم يشعروا . وسار مع رفيقـــه الصديق حتى وصلا إلى الغار فاختفيا فيه ونسج العنكبوت عليه خيوطاً . واستيقظ المؤتمرون فلم يجدوا محمداً ووجدوا عليا فى مكانه ، فخرجوا فى إثره يبحثون عنه حتى وصلوا إلى الغار فوجدوا العنكبوت ناسجا خيوطه حتى سدّ الباب سدا يدل على أن أحداً لم يدخله منذ سنين . وأقام فى الغار ثلاثة أيام ثم غادره إلى المدينة فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب ، وأخذوا يتنافسون فى استضافته حتى خشى محمد أن يؤدى ذلك إلى خلاف جسيم ، وعرض عليهم أن يتركوا الناقة تذهب حيث تريد ، حتى إذا وصلت الناقة إلى مكان الحرم أناخت فقال هذا بإذن الله منزلنا ، ثم بنى فيه الحرم وبنى له منزلا متصلا ، به وأخذ ينشر الدين فى صحبة من المهاجرين والأنصار .

وعلمت قريش بما أحرزه من نصر فتوجهوا إلى المدينة للقائه فخرج اليهم برجاله وقضوا عليهم . ولما عاد إلى مكة بعد ذلك

استقبله أهلها استقبال الفاتحين ، ولكن فريقا منها تجمع للكيد به وقامت الحرب فنصره الله إذ ذاك نصرا عزيزا . وخشى أهل المدينة أن يبقى الرسول فى مكة وطنه الأول وحدثوه فى ذلك فطمأنهم .

ولما أقاموا فى المدينة أذن رسول الله فى الناس بالحج فخرجوا إلى مكة واجتمع فيها إذ ذاك مائة ألف أو يزيدون يهتفون بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، حتى إذا ما أطل على البيت العتيق قال « اللهم زده تشريفاً وتعظيما ومهابة ونورا » وطاف به وسعى بين الصفا والمروة حتى إذا صعد الصفا قال لا اله إلا الله ، الله أكبر ، لا إله لا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحـــده » ثم ذهب إلى عرفات وخطب فى الناس فقال « أيها الناس اسمعوا منى أبن لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» فطافت بالمسلمين الظنون وأحسوا أنه ينعى نفسه ، وان هذه هى حجة الوداع ، فلما تلا عليهم قول الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » انقلبت الظنون يقينا ووجموا وزاغت افئدتهم ، وخشوا أن يفارقهم ، فلما عادوا إلى المدينة

أخذوا يلحظونه كل يوم فإذا رأوا العافيـــة بادية عليه سروا واستبشروا، فلما دخل عليهم المسجد يوما ورأوه مريضا هلعت نفوسهم فلما قال على المنبر: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ماعنده» بكى أبو بكر وقال له «فديناك بآبائنا وأمهاتنا يارسول الله» قال عليه السلام «أيها المسلمون إن أمنّ الناس على فى صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة فى الإسلام» فازداد أبو بكر بكاء وازداد المسلمون نحيبا.

ثم ألحت عليه العلة فأمر أبا بكر أن يصلى بالناس، وازداد خوف المسلمين وإشفاقهم الا يروه، فخرج عليهم وجلس على أول درجة من درجات المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال «أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم. هل خلد نبى قبلى فأخلد فيكم. ألا إنى لا حق بربى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، وأوصيكم بالانصار خيرا فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم. ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة. ألا وانى فرط لكم وأنتم لا حقون بى، ألا وإن موعدكم الحوض فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغى».

وخفت وطأة المرض قليـــلا فاستبشر المسلمون خيرا ولـكنهم ما لبثوا ان سمعوا البـكاء فى حجرته ، فأيقنوا أن الله قضى قضاءه .

وهكـذا تمت نعمة الله بتبليغ هذه الرسالة التى آتت ثمراتها فى الأرض فنشرت الهدى والعرفان ، ومحت الضلال والـكفران وستظل خالدة تملأ الدنيا إسعادا وهدى ورحمة للعالمين ؟

المؤلف

كيف نشأت فكرة الحج

فى عصر اليوم الأول من أيام عيد الفطر غادرت مدينة المنصورة حيث أعمل ، إلى قريتى لأقضى بعض الوقت بين أهلى وعشيرتى وجيرانى ، ألتمس الرضا والمحبة من أهلى وأشارك مع عشيرتى وجيرانى فيما جرت عليه العادة : أهنىء المسرور وأواسى المحزون فيما عدت به العوادى والمقادير ، وأجدد الصلات والعهود بين خلانى وأصدقائى ، وأتحلل من قيود المدنية ومظاهرها إلى الحياة الريفية الهادئة ، وأمتع النفس فوق الهواء العليل والشمس برفاق الصبا واخوان الصفاء الذين ولدت بينهم ونشأت فيهم . واستنشقت وإياهم نسمات الحياة الأولى وزاملتهم فى أيام الطفولة البريئة ، وخطوت معهم إلى الرجولة بقلوب نقية ونفوس رضية ، تلك الطفولة التى لم يكن أحدنا أيامها يفكر أو يدرى كيف يفكر فيما يطلقون عليه اسم المستقبل . يوم كنا وكل علمنا بالحياة صباح نستقبله بالبسمات ، ونهار نشغله باللهو والعبث ، ومساء لا ندرى من أمره إلا النوم العميق والحلم الجميل . يوم كانت أحمالنا ملقاة على عاتق من يحملونها راضين غير شاكين ولا متذمرين . أردت أن أكون بين هؤلاء لتتجدد عندى وعندهم ذكريات عهد مضى ما أحلاه وما أبدعه ، وأتمتع بالريف حيث هناك والد واخوة لا يرون منى إلا حسنا ، يشكرون

كل نجاح ، وينسبون الأخطاء إلى حسن النية وسلامة الطوية ويتلمسون لى الأعذار ، وهم فيما بين هـذا وذاك يعتبرون السيئة هفوة يسيرة لا تستوجب الاستغفار .

فى هذا الجو الصافى وبين هـذه النفوس الطاهرة ذهبت أقضى أيام العيد ، وكنت قبل ذلك أعلم أن والدى قد عقد العزم على أداء فريضة الحج هذا العام ، غير أنه لم يكن يرى اعلان هذا العزم إلا فى موعده ، ومن رأيه دائما أن ما ليس فى اليد لا يرتبط به اللسان ، فالمدى بين العيدين واسع ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، أو لعل لحظة واحدة قد تحمل من الحوادث ما لا ينتظره المرء فى أعوام « ولا تقولنّ لشيء إنى فاعلٌ ذلك غداً إلا أنْ يشاء الله » فقد تقهرنا الأيام على عدم المضى فى أى غرض وإن بيتت النية وانعقد التصميم على انجازه ، فالأمر لله وحده ، والأمور مرهونة بأوقاتها . فلا داعى إلى الاعلان مادام المدى غير قريب ، وما دام من واجب الناس أن يستعينوا على قضاء حوائجهم بالكتمان . وقد يكون الاعلان وحده سبب الإرجاء فإن من الأهل والإخوة والاخوات من قد يرى من سن والدى وصحته ما يدفعه إلى الإشفاق عليه من طول السفر ، وما يذاع عن وعورة الطريق ومشقة الانتقال كثير ، خصوصاً أنه اعتاد نظام نوم وطعام وتداو لا يتيسر هناك ، وقد يكون من آثار هذا

الإشفاق ما يحملهم على إقناعه بأن ينثنى عن عزمه وقصده الذى هو جاد فيه . وقد حدث فعلا عند ما ذاع الخبر قبيل السفر أن حضرت أخت له تقيم الحجة والبرهان على ان صحتـــه وحالته لا تحتملان السفر ، وعلى ان الاسلام يعفيه منه، إذ أن الحج لمن استطاع إليه سبيـــلا حتى قالت له : ولا شك انك فى اعتلال صحتك وضعف قوتك غير مستطيع ، ولكن هذا القول لم يصل إلى نفسه ، ولم يتجاوز حد الأذنين ،فقد كان كل شىء من معدات السفر تاما حتى المراسم الطبية، فطمأن خاطرها وقال لها:إن هنا وهناك أرضا واحدة ، وليس على المرء أن يبلغ التحرز والخوف على حياته حدا يقعد به عن الحركة ، فما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وليس القعود بواق من انتهاء الأجل فالموت مدرك صاحبه ولو كان فى بروج مشيدة ، ثم ختم بقوله هأنا قد أعددت العدة ، وعقدت النية وليس من اصالة الرأى أن أتردد والله يقول « فإذا عزمتَ فتوكلْ على اللهِ »

وكان من شدة مبالغته فى إخفاء الخبر أيام عيد الفطر أن لم يذكره لى ، فلم أحاول أن أسأل عن مقدار نصيب ما أوصانى به ، مترسما فى ذلك ألا أخرج عن رغبته وإن كنت واثقا انه لن يخفيه عنى أبداً ، لهذا تركته يذكره عندما يريد ، لا حين أريد وكان لا بد لى فى اليوم التالى أن أركب إلى قرية قريبـــة

فاصطحبت أخى الأكبر فى عربة أقلتنا إلى حيث قصدنا، فأدينا بعض الزيارات ثم عدنا، وفى طريقنا عرض الخبر عرضا فتوسعت فى الحديث، وكانت الخطة المرسومة أن يكون فى رفقة والدنا أحدنا وخادم، وصح العزم على أن أكون أنا رفيقه فى الحج، وتملكنى الفرح لهذا التوفيق فى تحقيق رغبة ملحة استولت على خاطرى منذ قرأت « حياة محمد » و « فى منزل الوحى » وغيرهما من كتب السيرة، ومع أنى كنت صادق العزم على الحج والزيارة قبل هذه المصادفة، ولكنى لم أتوقع هذا الحد من القرب؛ فأنا رجل أعيش وحدى مع أولادى الصغار فى ديار لا قرابة لى فيها ولا نسب، ولست بمستطيع أن أنقلهم أثناء غيابى إلى قريتنا، فمنهم من لا ينبغى أن أقطع سير دراسته كما أنى غير قادر على أن أنقل إليهم بعض أهلى، ولديهم مصالحهم وأولادهم، وليس من الهين أن أتركهم وحدهم فى هذه البلاد. ثم أنا فى فصل الشتاء ولست آمن برودة الجو فى الطريق. ولو أننا فى فصل الصيف وكانت أراضى الحجاز على غير خط عرضها لما كان هناك محل لمرور هذه الخواطر، ولكننا فى فصل الشتاء جيث البرد الشديد وحيث الموسم الدراسى فى إبانه.

كانت هذه الظروف تجعل التفكير فى السفر مستبعدا بالنسبة لى، مع ما بى من شوق ولهفة الى أداء هذه الفريضة، فلما واتت الفرصة شملنى سرور بالغ، وقلت لنفسى إذا كان ما يشغلنى هو

أولادى فما غيبتى إلا شهر واحد يحتملونها فيه واحتملها وهم لاهون بمدارسهم ومعهم والدتهم تلاحظهم فى أعمالهم والله يرعاهم بفضله ويكلؤهم بعنايته ، وأما عن الجو هناك فلاشك أن موقع الحجاز يجعله دافئا ان لم يكن شديد الدفء ، ومع ذلك فإن قليلا من الحيطة قد يمنع الأذى ، وهأنذا فى عملى قد تحملنى الحوادث على قضاء ليل كامل فى شتاء المنصورة خارج منزلى أحقق فى احدى القضايا وأجوس من أجلها المزارع والطرق فى جو البرد الشديد والضباب الكثيف ، فهلا أحتمل شيئا من ذلك فى سبيل أداء فريضة الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى؟

أفلا أحتمل شيئا فى سبيل أن أزور رسول الله وأمثل أمام حجرته الشريفة ، وأقف حيث وقف وأصلى حيث صلى وأنا فى هذا وذاك أرى مهبط الوحى الذى نزل فيه القرآن هدى ورحمة للعالمين ! وفوق هذا فهى رحلة واجبة على كل مسلم هيأها الله لى وأخلانى من تبعاتها .

عدت الى المنصورة ومعى نفقات السفر لإعداد جوازاته فلما وصلتها كنت جذلا طروبا ، فسألتنى شريكتى ماهناك فقصصت الأمر عليها ، فسمعته وظنته من قبيل التفاؤل والتمنى ، فلم تحسبه جداً إلا بعد أن أكدته لها وأطلعتها على ما حملته من معداته .

وقضينا ليلة كاملة نتحدث فيها بفضل الله وسابغ نعمته التى

كتبهالى ، ووددت أن ترافقنى لولا أن حالة الأطفال لا تسمح بغيابنا معا مدة طويلة فى وقت واحد فعاهدتها على أن أهيء لها سفراً فى العام التالى إن شاء الله .

لم يساورنا أى شك ولم تشب فكرتنا أية شائبة ، فقد كان كل ما ارتسم فى ذهنى من صور يشجعنى على أداء هذا الواجب ويحفزنى الى المسارعة اليه فى رحلة جميلة إلى بلاد مقدسة ، ثم شجعنى أيضا انى مسافر فى الواقع إلى قطر شقيق والبلاد التى أنا راحل اليها بلاد عربية وأهلها يمتون الينـــا بأواشج القربى والجوار ، والباخرة التى ستنقلنى إلى تلك البلاد هى دار مصرية شرقية بكل ما لهاتين الكلمتين من معان ، ثم إننى سأجد مصريين وشرقيين فى كل بقعة من أرض الحجاز ، وسأجد فى كل بلدة من بلاده ديارا مصرية حقا . اليست لنا سفارة فى جدة وفندق ومصرف يخفق عليهما علم مصر ، ومثلهما فى مكة المكرمة ؟ ومثلهما فى المدينة المنورة : سفارة وتكية مصرية يقوم عليهما مصريون ، وأحسست حقا اننى سأكون فى كل مرحلة كأننى فى الديار المصرية .

وقد علمت أيضا أن على بلاد الحجاز عاهلا يأنس الحجاج اليه ، ويرون فى وجوده خير ضمان لراحتهم وأمنهم وطمأنينتهم وعلمت أيضا أن بالديار كل ما يحتاج اليه الرجل من ضروريات

وكماليات . لذلك كنت كبير الثقة بأنى سألقى الراحة التى أنشدها إلا بعض مشقة يسيرة لا يخلو منها سفر ، وإلا بعض تضحيات لا يكاد الانسان يتخلص منها فى أى رحلة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ان فى كتابى هيكل باشا [١] ، وأعمال طلعت باشا [٢] الخالدة ما يبعث النفس على الاسراع الى أداء هذه الفريضة ، فلقد وصل أولهما إلى أعماق النفوس فزادها ايمانا وحرك هذا الايمان كامن الشوق إلى الحج والزيارة ، وسهل ثانيهما بعمله سبيلها .

ولقد كان الناس قديما يسافرون الى هـــذه الربوع لأداء الفريضة فى رحلة يتعرضون فيها لكل المتاعب والأخطار يقضون فيها الشهور ، ويستودعون الله أولادهم وآلهم وهم يغلبون الظن ألا يعودوا ، وكان أهلوهم يقدرون هذا ، فكنت ترى الدموع الغزار منهم فى حفلات الوداع ، وكانوا وهم يمتطون الجمال ويحملون الزاد كأنما ينتقلون من العمران الى نقيضه ، ومع ذلك لم تكن تمنعهم هذه المصاعب من الحج ايمانا بالله وشوقا الى رسول الله ، فما بالنا وقد هان السفر وانتشرت ظلال الأمن وقصرت الشقة وقلت الكلفة لا نسارع الى التزود من هذا المتاع الذى له فى الحياة الدنيا لذة وفى الآخرة جزاء عظيم ؟

(١) كتاب فى منزل الوحى وحياة محمد

(٢) طلعت حرب باشا مدير بنك مصر اذ ذاك وزعيم النهضة الصناعية والاقتصادية .

يوم السفر

اتفقت كلمتنا على أن نسافر فى الثلاثين من شهر يناير، وأن تنقلنا الباخرة المصرية « زمزم » إحدى بواخر الملاحة التى أنشأها بنك مصر ، وأعددنا متاعنا ولباسنا وما قد يحتاج اليه المرء من لوازمه الخاصة والإسعافات التى قد تعوزه ويتعذر عليه إيجادها فى الطريق . فلما كان اليوم الذى سنسافر فى غده جلس معنا بعض أصدقائنا قليلا من الليل ثم انصرفوا ، لأنهم - كما قالوا - إنما يخلوننا الوقت الذى نجتمع فيه الى أهلنا وأولادنا يتزود كل منا بنظرة طويلة من سواه ، فمن يدرى ان كان فى سجل الايام واللوح المحفوظ ملاقاة أخرى بعد هذا الفراق ام لا !

لقد أحدثت هذه العبارات أثراً عميقاً فى نفوسنا ، وبدأنا نشعر باحساس غريب ، لا كالذى يشعر به المرء عادة قبيل كل سفر . ولست أدرى سبب هذا الاحساس . فان ظروفا كثيرة قد ألزمتنا مفارقة أهلنا وأولادنا وأقاربنا مدداً زادت أحيانا على الشهر ، وما شعرنا قبل اليوم بما نشعر به الآن . فنحن فى شوق شديد إلى ارتياد هذه الرحلة نستنجز بها ركنا من أركان الاسلام . وهؤلاء أهلنا والناس من حولنا يغبطوننا على ما نحن راحلون اليه فى سبيل الله . ولكنا أيضا فى شوق إلى آلنا

وهم مشفقون علينا . وهذان النوعان من الشوق والاشفاق اختلفا واختلطا ثم امتزجا فى نفوسنا حاسة غريبة ليس فى قدرة يراعى أن يترجمها ، ولا فى طوق خيالى أن يصورها أو يعبر عنها.

حافز الى السفر ، واشفاق من الرحيل ، وهذا وذاك أمران ليس من أحدهما بد . ولعل سبب هذا الشعور ما سبق أن قلته عما عرف عن متاعب السفر إلى الحجاز فى الزمن الماضى حتى رسخت فى الأذهان آثار هذه المتاعب ولم يستطع الاعلان ولا البرهان محوها وإن كان قد خففها ، فـــلا يزال الناس يتصورون أن الحج شهور طويلة يقضيها المسافر حتى يفرغ من أداء فريضته ، تحيط بها أنواع المخاوف والأمراض . أما اليوم فانك تجد كل شىء إلا الخوف والمرض. تجد الأمن والطب ، وتجد من الحاجات ما قد لا تعثر عليه فى بعض بلاد القطر المصرى نفسه ، أما اليوم فانك تجد راحة فى السفر ، وميسرة فى الإقامة ومع ذلك فان الرحلة لا تستغرق بضعة أسابيع لا تتجاوز الخمسة مهما طالت . فليس هناك فى الواقع محل لهذا الاحساس المختلط ولكنها غريزة النفس والخوف على الحياة وضعف المقاومة والميل الى الهدوء ، وهو فى الواقع احساس تحس به كل صباح ومساء إذا خرجت من منزلك أو عدت اليه ولكن بشكل غير ظاهر .

وخرج الأصـــدقاء ، وجاء الآل والأبناء وجلست ابنتى الصغيرة إلى جانبى تحدق بصرها فى وجهى ، وتصوب عينها إلى عينى وهى تتأمل فى رأسى طويلا ، ثم قالت بسذاجـة الطفولة وسهولة الفطرة : أفلا تبيت معنا الليلة القادمة ؟ وهل ستكون بعيدا عنا فلا نراك غدا ؟ لا تغب عنا طويلا ياوالدى . وقالت اختها الكبرى سننتظر منك كل يوم رسالة، وقد أودعنا فى حافظتك كثيراً من الأوراق والأقلام ، فاكتب إلينا كل يوم كتابا أذكر لنا فيه جميع ما تعمله فى ذلك اليوم ، واذكر لنا كيف تنام وكيف تأكل ، ومع من تعيش ، ومن رفاقك الذين تلاقيت بهم وتعرفت اليهم ، وصف لنا الباخرة التى ستسافر فيها ، والجو الذى تسافر فيه والاحساس الذى تشعر به عند مغادرة السويس ، وصور لنا كل ما تراه ، وقال أخى : لا تنس أيضا أن تصف لنا جدة ومكة وعرفات والمزدلفة ومنى والمدينة والطرق الموصلة بينها ، والأماكن التى تراها فى هـــذه الطرق ، وان استطعت فاكتب لنا شيئا عن عادات أهل تلك البلاد وطريقة معيشتهم وأحوالهم . واجعل وصفك شاملا لما قد تراه من طرائق المعيشة فى الطبقات جميعا . وقد أدهشنى هـــذا الطلب وأثار اعتراضى وقلت لهم : لئن أردتم وصفا جغرافيا فها هى كتب الجغرافيا بين أيديكم ، وإن أردتم وصفا صوفيا فها هى كتب

الدين فى متناولكم ، وان أردتم بين هذا وذاك فأمامكم كتاب « فى منزل الوحى » فقد وصف الأمر الواقع فى روح عالية من اللغة والأدب ، وسحر روحى واسع وشرح طويل . فقالوا إن كتاب هيكل باشا هو على ما وصفت ، وهو فوق ذلك مكتوب عن الطبقة العليا من الناس للطبقة العليا من الأدباء والقراء . كما أن كتب الجغرافيا انما هى كتب واصفة لا مرشدة ، وإنما نطلب وصفا يستطيع المرء اذا قرأه أن يدركه ، وإذا أدركه استرشد به وتتبع خطاه ، ويكون فى الوقت نفسه فى متناول المتوسطين من آلاف الحجاج المصريين إدراكا ، فهم إذا وضع لهم وصف يتفق مع حالتهم أمكنهم أن يسيروا على هداه .

وقد أعجبتنى الفكرة فعاهدتهم وعاهدت نفسى على أن أضع عن مشاهداتى مذكرات تكون أساساً لعرض هذا الموضوع .

جاء الصباح وانصرفنا بطريق البر إلى السويس وتوجهنا إلى الميناء وتخيرنا الغرفة التى سنأوى إليها حيث وضعنا متاعنا ثم توجهنا إلى استراحة الباخرة وجلسنا فيها ، وقد كان الزحام فى الميناء بالغاً أشده لكثرة المسافرين والمودعين ، وكان بينهم كثير من رجال البوليس ، بعضهم ذهب إلى الميناء كعادته وبعضهم ذهب لتحية وزيرين كان أولهما يودع حرمه والثانى يودع والده ، والطبيعة لا تطاوع أحداً ولا تخضع لسلطان أحد ولا ترعى الجماهير ولا ترهب الزحام ، فقد تلبدت السماء بالغيوم

ثم انهمر المطر مدرارا فلم يجامل ولم يدار، واستبشر الناس بالمطر فألا جميـــلا فى السفر ، ذلك هو الغيث المنهمر .وظللنا فى الاستراحة نتجاذب الأحاديث من مودعينا حتى دق الجرس ونادى المنادى لغير المسافرين أن يغادروا الباخرة ، لأنها على وشك الرحيل . وقد رجوناهم أن يجيبوا نداء المنادى فنزل منهم من أطاع ولكن أخوى تباطآ فى النزول متلمسين الأعذار متعللين بأن هذا هو التنبيه الأول، وأن كثيرا من المودعين الآخرين لا يزالون جلوساً بالباخرة ،بل إن بعض أمتعة الركاب لا تزال على الرصيف ، والحمالون يرفعونها ، ولا يزال فى الوقت متسع . وما كان لهذه الأعذار فى ذاتها شىء من الوجاهة،بل هى منتحلة والحقيقة فى أمرها إطالة البقاء معنا كل ما يستطاع ، وكان هذا يتفق مع رغبتنا ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . وهكذا لم ينزلا الا بعد اقناع طويل وعنـــاق وتقبيل صاحبهما بكاء ودموع .

وغادر الجميع الباخرة ووقفوا على الرصيف ووقفنا على سطح الباخرة ننظر إليهم وينظرون إلينا ، نلوح لهم ويلوحون لنا ، ويحيوننا ونحييهم حتى تحركت الباخرة فأخرجنا المناديل نتبادل الإشارات بعد أن بعدت الايدى ، ولم يحل بيننا وبينهم ذلك المطر الغزير الذى غمر جميع الواقفين زمنا كبيراً ، فلم نهرب

منه ، وهكذا استمرت هذه الاشارات حتى استحالت رؤيتنا وغاب كل منا عن الأنظار .

ثم انصرفنا للطواف فى انحاء الباخرة نستكشف أمرها ونتعرف إلى سكانها ، وكان أول من تلاقينا معهم ثلاثة من رجال المحاكم تعرفنا إليهم ، فكان الأمر موضع العجب وقلت لهم من فرط سرورى بلقائهم : هل كتب على أن أعيش دائما فى المحاكم حتى فى رحلتى إلى الحجاز ، ولست أخفى اننى شعرت نحوهم بمحبة سريعة ، وألفة كأنها ألفة السنين مع اننا لم يسبق لنا تلاق ، فهل كان السبب أننا غرباء جميعا وكل غريب للغريب نسيب ؟ لكن الباخرة ملأى بالغرباء ، فلماذا اختص الائتلاف والحب رجال المحاكم ، أم أن للزمالة ووحدة الدراسة أثرها فى إيجاد الجاذبية بين العمل الواحد الذى يحبونه ويعشقونه ، ولعل هذا هو السبب الوحيد فى الائتلاف السريع .

وسرنا جميعا وطفنا بالباخرة ، وشاهدنا مسجدها وغرف الطعام فيها واستراحتها ومستشفاها وصيدليتها ، وزرنا طبيبيها « رشدى وشكرى » وصالون الحلاقة فيها ، فكانت مدينة كبيرة فى باخرة ، كل غرفة فيها منزل صغير مجهز بالفراش والنور والماء ، وقد يغنيك عن طول الوصف أن تعلم أن فيها كل ما يلزمك وما تشتهيه ، وعلى رأسها مدير رقيق المشاعر حريص على راحة

المسافرين ، مسارع إلى اجابة مطالبهم وسد حاجتهم . ولقد لقى الركاب من رعاية طبيبها ما يلقونه من رعاية الطبيب الخاص فضلا عن أن الأدوية تصرف للمرضى بغير مقابل . ثم جلسنا نتحدث فيما نحن فيه وما سنكون فيه وقد صحا الجو ومالت الشمس للغروب واختال احمرار الشفق بزرقـــة ماء البحر والباخرة تسير بين هذا الشعاع البهيج والمنظر الجميل الذى يحلو للشعراء وصفه والابداع فيه .

فى عرض البحر من السويس إلى جدة

كان مقررا أن نصل إلى جدة بعد ثلاث ليال نقضيها فى عرض البحر، ولكنا علمنا أن ادارة الباخرة قررت الاسراع بنا واختصار الوقت ليلة كاملة لنصل إلى جدة فى اليوم الأول من شهر فبراير. فأتاح لنا ذلك أن نقضى زمنا نستمتع فيه بذلك المنظر البهيج، منظر الشمس وشيك مغيبها تبسط شعاعا ذهبيا على ماء البحر فتجعل منه ذهبا يتأرجح ويتماوج متشكلا تارة بلون الشفق وتارة بلون الشمس اذا ألقت نضارها لتترك الأحياء مبهورين بسحره وجماله. وقد زاد فى بهائه ذلك التدرج المنتظم فى انسحاب الشمس تحت السحاب يطويها فى ردائه حتى يغيبها عن الانظار، ولو أنك لاحظتها وهى تبتعد رويدا رويدا تغمرك الرغبة فى بقائها، وتزداد هى دلالا وانسحابا وأردت أن تنظم شعرا فى وصف هذا المنظر فما أبدع القصيدة التى تصور هذا الجمال، جمال الطبيعة فى صفوها، وكل شىء فيها ينطق بقدرة الخالق العظيم جل شأنه وتعالت اسماؤه وصفاته.

وهرعنا مبكرين إلى حجراتنا لنستريح من عناء ما بذلنا من الجهد فى يوم السفر، واستيقظنا قبل فجر اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير فوجدنا أكثر الركاب وقد قاموا يستعدون للصلاة

يبادلونك التحية أينما وجدوا كأنما ربطت بينك وبينهم أواصر الصلات العتيدة. وكان الجو بارداً لم يسمح لنا بالارتياض على سطح الباخرة فجلسنا فى استراحتها نتجاذب أطراف الأحاديث إلى أن جاء وقت الإفطار فتناولناه، وكان النهار قد نشر دفأه وضياءه، فأخذنا نتنزه وننتقل من مكان إلى مكان. وكنت قد ظننت قبل سفرى أننى سأجد من وقتى ما أنفقه فى المطالعة فحملت معى كثيراً من الكتب، ولكن تبين لى أن المشاهد التى كانت تتجدد كل لحظة لم تدع للقراءة سبيلا وكان بين المسافرين جماعة أدوا فريضتهم قبل هذا العام فأخذوا يصفون لنا البلاد، فحدثونا كثيراً عنها. أنست إلى واحد منهم فسألته عن سبب عودته إلى الحجاز مادام قد أدى الفريضة فسكت وقال: إنى أفضل أن تسألنى هذا السؤال عند رجوعنا إن شاء الله سالمين، وإنى لعلى ثقة أنك حينئذ ستعتزم العودة مرارا. وقال لى صديق آخر: حججت فى العام الماضى، وكنت تواقا الى الحج مرة أخرى، ولكنى لم أعقد العزم، اذ الموظفون لا يملكون أوقاتهم، وقد لا توافق الحكومة على إجازة أخرى خارج القطر اذا لم تسمح حالة العمل بذلك، ولكنى ما كدت أقترب من موسم الحج حتى اشتعل قلبى ولعاً بالطواف حول الكعبة والوقوف على قبر الرسول الكريم الأمين، أناجى حضرته فى خلوته، واستمتع بهذا المشهد الحبيب الى نفسى

فسارعت فى إعداد ما يلزمنى من المال وذهبت إلى رؤسائى فاستأذنتهم ، وكنت مدفوعا بحافز غريب : كنت كلما رأيت أحدا يستحضر جواز السفر دب فى نفسى دبيب الغيرة واللهفة وقال تاجر : إن هذه هى السنة الثالثة عشرة من السنين التى مضت ولم أتخلف فيها عن الحج عاما واحدا ، فقد بدأت تجارتى رقيق الحال ونذرت للرحمن أن أحج بيته إن توفرت لدى نقود أنفق منها على نفسى وأتصدق منها على الفقراء ، وما مضى عامان إلا وكان المبلغ فى يدى فأوفيت نذرى وأديت الفريضـــة ، فلما عدت إلى مصر وثابرت على عملى زاد مالى ، فذكرت قول الله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وانما يزكى المال بالصدقات . فاعتزمت أن استديم رحلاتى إلى الحجاز مادمت حيا أنفق فى سبيل الله من فضل الله ، وكلما تكرر حجى تضاعف كسبى حتى صرت أملك بضعة آلاف من الجنيهات من تجارة بدأتها ببضع مئات من القروش . وقد وفقنى ربى ، فما أخلفت هذا العهد والميثاق . فعقب على ذلك الحاج الذى سألته أولا قائلا : ليس لى بعد ما سمعت أن أزيد شيئا فإن جاذبية روحية ستحس أنها تدفعك إلى العودة ، وإنه لخير لمن يسافرون خارج القطر أن يجعلوا أسفارهم إلى بلاد الحجاز يؤدون فريضة عليهم ، ويفيدون أهل بلاده ويتمتعون مع ذلك بمناظر طبيعية غاية فى الجمال .

وجاء الظهر وموعد تناول الغداء فتناولناه ثم ذهبنا نستريح قليلا ثم ننصرف إلى الحمامات لنستعد الإحرام فنصل إلى رابغ قبل المغرب وهى المكان الذى يجب الاحرام عنده لمن يقصد مكة، فمن أراد أن يبدأ بزيارة المدينة المنورة فانما يؤجل إحرامه حتى يعود منها فيحرم فى طريقه إلى مكة من ميقات أهل المدينة. وقد صرفنا قبل راحتنا وقتا طويلا جلسنا فيه إلى أحد العلماء فجعل يحدثنا عن الحج وفرضه وحكمته، وعن الاحرام وواجباته وممنوعاته، وكان حديثه طيبا، وكانت آذاننا له واعية فعلى رغم أن كثيرا مما قاله كان فى مذكراتنا إلا ان الحديث عن الحج يحلو خصوصا فى طريق السفر إلى أداء الفريضة قال تعالى « ولله على الناس حجُّ البيتِ من استطاعَ إليهِ سبيلا » وسئل النبى عليه الصلاة والسلام : أى الأعمال أفضل قال ايمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا قال جهاد فى سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور. وقال يضا أفضل الجهاد حج مبرور وقال سيدنا عمر : شدوا الرحال فى الحج فانه أحد الجهادين، واستمر العالم فى محاضرته فذكر ان شروط الاحرام الغسل بنيته وازالة الشعر وتقليم الأظافر وقص الشارب ولبس الرداء على الكتفين وكشف الرأس ولبس حذاء خاص فى القدمين. ومتى نويت الإحرام فالتزم حدود قوله تعالى « الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فرض فيهنَّ الحجَّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحجِّ »

ولاطيب ولانساء ولامخيط ولامحيط من الثياب .وبعد أن انتهى العالم من محاضرته تقدم اليه كثيرون يستفسرون منه عن بعض التفاصيل فكان يجيبهم عما يسألون ، وفسر لهم متى وكيف يكون الفداء والهدى وما يجب على الحاج عند العجز عن الإحرام .

ها نحن قبيل المغرب ، وهذا موعد الاحرام ،وحين ذهبت الى استراحة الباخرة وجدتها غاصة بالحجاج وهم جذلون فرحون يذكرون الله ويسبحون بحمده فما رأونى حتى أقاموا عاصفة من التهليل والتكبير هى تحية المحرمين بعضهم لبعض يستعيضون بها عن السلام وهى : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » فاذا أقبلت عليهم أو أقبلوا عليك فهذه تحيتك وتحيتهم . وهكذا يرددون هذه التلبية كلما أقدم عليهم قادم أوسار من بينهم أحد لايعرفون فى هذا الوقت غير التلبية لله صاحب العزة والجلال .

وقضينا ليلة ساهرة ممتعة نستمع الى الاحاديث حينا والى خرير الماء حينا آخر حتى جاء موعد النوم فقمنا ،ولما تنفس الصبح صعدنا الى سطح الباخرة ننظر الى جدة علنا نراها من بعيد . وتقابلت صدفة مع قبطان الباخرة فحيانى على غير معرفة ،ورددت تحيته بالانجليزية وأقبل على يحدثنى ووقفنا قرب باب الباخرة الذى سينزل منه المسافرون وجعل يقارن بين هدوء البحر الاحمر وأمواج البحر الأبيض وبين الطريق

الى الحجاز والطريق الى أوربا وإحساس المسافر الى مكة والمسافر الى مرسيليا . وقال لى انه لاحظ ان الفكرة التى تسيطر على المرء فى سفره تغير من حالته حتى لأكاد أعتقد أنها تغير من مسلكه ، ولذلك نجد المسافرين الى الحجاز رجلا واحدا وروحا واحدة ونفسا واحدة وجماعة واجماعا ، كلهم رضى مسرور ، أما المسافرون الى مرسيليا فلكل منهم شأن يغنيه ، فلا تجمعهم غير صداقة البعض منهم بالبعض ، وإنك لتجد بينهم الفرح والعابس والمسرور والمحزون والراضى والغاضب كل يتأثر بمشاغله وأهوائه الخاصة ، وانتقلنا إلى الحديث عن أخلاق المصريين فأخذ يمجدها ، وعن عاداتهم فأخذ يحسنها فشكرته وذكرت له أنى أعتبر ما جرى على لسانه مجاملة لمصرى فى أهله ، ورجوته أن يشرح لى ما يعرفه عنا لعلنا نستفيد من نقده ، فأكد لى بلسان الواثق الطيب القلب أنه يعنى ما يقول ، وأنه يقول الحق فرددت له التحية ووجهت له شكر المصريين وذكرت له ما يجدونه من صفاتهم وأخلاقهم ، ثم استأذنته وانصرفت لأتريض فى الباخرة ، حتى التقيت بمديرها « المسيرى بك » والتقى بى مع جماعة من الحجيج فشكرنا له ما لقينا من عنايته وعناية شركته براحتنا أثناء السفر ، وكانت الساعة العاشرة قد اقتربت وبدت لنا جدة والبواخر الواقفة فى عرض البحر ، وشهدنا هيكلا لباخرة كانت قد احترقت وبقى حطامها وهالنا هذا المنظر وأخذ

منا الهلع أن تصورنا أنها احترقت وفى جوفها آباء وأولاد ، وشيب وغلمان ، لم يجدوا لهم مفراً من الموت وهم قاب قوسين أو أدنى من بلاد الرسول ، وطمأننا أحد الركاب إلى أنها احترقت وهى خالية من الرواد ، فسرى عن نفوسنا ، ووقفت الباخرة بعيدة عن جدة ، وسررنا لمنظرها فإنك اذا راها على شاطىء البحر كالبيوت المتناثرة يكسبها البحر من جماله جمالا ، وتكسبه من وجودها بهاء ، وأن أكثر المناظر سحراً جمال البحر فى اتصاله بالبر ، ولا تدرك بهاء للمنازل أجمل من بهائها على شواطىء البحار والأنهار . ونزلنا من الباخرة الى زورق يقلنا الى الميناء ، ذلك أن ميناء جدة غير معدة لرسو البواخر ، ولا أنكر عليك أن الانتقال من السفينة بالزوارق الى الميناء متعب حقا ، وقد يتعرض فيه المرء لبعض مالا يحب ، وقد حدث أن جلس قاض مصرى فى زورق واحتك به جانب زورق آخر فجرحت يده وهرس أصبعه ، وظل طوال مدة الحج يعالج يده ، وإنك لتتصور أكبر العناء إذا أدركت ان حمولة السفينة ثمنمائة وألف راكب بأمتعتهم وأصحاب الزوارق يتنافسون فى الاقتراب من الباخرة . وقد حدث أن وضع متاعى خطأ فى زورقين غير ما ركبته ووصلت إلى الميناء بدونه وظللت فى انتظاره مدة طويلة ، ولهذا اقترح أن تنشىء حكومة الحجاز ميناء ترسو أمامه السفن فى مكان صالح أو تعمل وصلة برية بلسان داخل البحر ينتقل الركاب

من طريقها كهذه الوصلات البرية الموجودة فى الطور . نعم ان الحجاز فى حاجة الى اصلاحات أخرى وتلك بدورها محتاجة الى المال، ولكن عناية الحكومة من جهة ومعاونة الدول الاسلامية كذلك من جهة أخرى كفيلان بإنجاز الاصلاح فى وقت قصير .

ولما وصلت الى أمتعتى وجرت عليها مراسم الجمرك غادرت الميناء بين آلاف من مختلفى الجنسية : هنود وجاويين ومغاربة ودول أخرى أقلتهم البواخر الراسية فـــذكرت قوله تعالى « وأذن فى الناس بالحج يأتوكَ رجالا وعلى كل ضامر يأتينَ من كل فج عميقٍ ليشهدوا منافعَ لهمْ ويذكروا اسمَ الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعامِ فكلوا منها وأطعموا البائسَ الفقيرَ ثم ليقضوا تفثهمْ وليوفوا نذورهمْ وليطوفوا بالبيتِ العتيق » ولما غادرت الباخرة نزلت فى فندق جدة .

فى جدة

كان الوقت ظهرا عند ما وصلنا إلى ميناء جدة ـ وإن شئت فقل ميناء مكة ـ وكان الجو حارا يماثل جو مصر فى مايو، وكنا نحمل ملابس الشتاء إذ لم يكن فى الظن أو التقدير أن يكون الفرق هكذا شاسعا، وأن يكون الجو هكذا حارا، ونحن فى اليوم الأول من شهر فبراير.

الله أكبر! لبيك اللهم لبيك:

وصلنا إلى جدة، ولا تزال ألسنتنا تنطق مترجمة عما يملأ نفوسنا من السرور والمرح بالتهليل والتكبير، ولم يشغلنا عن ذلك انتقالنا من الباخرة إلى الزورق، ولا البحث عن أمتعنا وانتظار وصولها إلى الميناء، ولا مقابلة وكيل المطوفين واتخاذ المراسم الجمركية.

ومرفأ جدة هو مدخل بلاد العرب من ساحل البحر الأحمر وهو طريق الوصول إلى مكة مسقط رأس النبى العربى الكريم الذى أرسل للناس كافة هدى ورحمة، ومبعث النهضة العربية القديمة، ومهبط الوحى فى بدايته.

تلك هى بلاد العرب التى سيطرت زمنا ما على ملك واسع

الأطراف بعيد الأكناف ، والتى نشأت فيها الأمة العربية أقدم الأمم على الزمان وأعرقها على الايام وأطولها خلودا ، وأوسعا سلطانا ، وأسعدها حظا وأشدها تمسكا بالرجولة ، واستمساكا بالبطولة ، وأصلبها عودا وأقدرها على الصبر ، واحتمال الأحداث .

تلك الأمة التى لم يخلد أهلها إلى النعيم ، ولم يتعلقوا بأهداب المدنية ، هؤلاء الرجال المتزهدون فى طعامهم المتقشفون فى لباسهم ، الذين لم يعنهم من الدنيا غير الله والحق والتقوى بذلوا أرواحهم رخيصة ، وسكبوا دماءهم كريمة فى سبيل المحافظة على الشرف والكرامة ، وإعلاء كلمة الحق والدين .

الأمة العربية التى من قبائلها قريش والتى نشأ فى ربوعها عبد المطلب بن هاشم والد عبد الله وجد رسول الله الذى حكم فى مكة تسعة وخمسين عاما رفع فيها شأنها وصد عنها العوادى حتى كان عام الفيل وسول « أبرهة » لنفسه أن يغزو مكة وأن يهدم البيت العتيق فجعل الله كيده فى تضليل وأرسل عليه وعلى جنده طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول .. فعاد « أبرهة » أدراجه مع ما بقى من جيشه ولم يعش بعد ذلك .

وهكذا كان عام ٥٧٠ م عاما مباركا ، هزم الله فيه جيش

الحبشة وأبادهم مع فيلتهم ، وكان عاما مباركا ولد فيه محمد عليه الصلاة والسلام .

بلاد العرب مبعث المعجزات المحوطة بالأسرار الناطقة بقدرة الخالق الواحد القهار ، يهبط إليها كل عام سبعون ألفا أو يزيدون يحجون بيت الله ، ويؤازرون ثلاثة ملايين من الانفس لا عيش لهم إلا ما يكسبونه فى موسم الحج ، تلك البلاد التى هاجر إليها ابراهيم بزوجته وابنه اسماعيل وترك اسماعيل مع أمه وليس معها من حطام الدنيا سوى دعاء صالح من نبى صالح لإله قادر « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ومايخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء »

هذا هو الدعاء الذى خلفه ابراهيم لولده اسماعيل وزوجته هاجر ، وهذا هـــو الدعاء الذى استجابه ربه فجعل الحج من أسباب الرزق لهؤلاء الأبرار ولمن جاورهم من عباده وهذا هو الذى كان من آثاره عمران تلك البقاع الطاهرة .

نحن اذن فى مدخل البلاد المقدسة ، فجدة بلد مبارك ، لأنه السبيل إلى هذه البلاد .

ويخيل إلى أن ثغر جدة لم يتغير فيه شيء من حيث شكله من زمن بعيد ، فإن ما كتب عنها من سنة ١٨٩٦ لا يكاد يختلف عما شاهدته فيها [١] فهي في وصفها بلدة تقع على البحر الاحمر تحيط بها الاسوار من كل ناحية ، متوسطة الحجم مؤلفة من عدة منازل يبلغ ارتفاع بعضها خمس طبقات على شوارع متعددة لا هي بالضيقة ولا بالواسعة ، وكل شوارعها أرضية معتنى بعض الشيء بنظافتها ، فيها المدارس والمتاجر المختلفة : شارع التجارة فيها أشبه بعض الشبه بشارع الغورية بالقاهرة كما أن شكل المنازل في مظهرها يشبه منازل ذلك الشارع من حيث بنائها ونوافذها ، بها مقاه كالمقاهي البلدية الكائنة بالاحياء العربية بالقاهرة تتشابه معها في الأثاثات وأنواع المشروبات التي تقدم فيها ، والاضاءة فيها ضعيفة وتوجد بها أنابيب للمياه وليس بها تيار كهربائي .

وقد يهمك من ذلك كله أن تعرف أنها بلدة كبيرة بها تجارة واسعة وبها كل ما تحتاج إليه من طعام وشراب ودواء ولباس . ولا يهمك أن تعلم ان كان بها ثلاثة آلاف منزل

---

(١) يراجع في ذلك ما كتبه محمد باشا صادق سنة ١٨٩٦ وابراهيم باشا رفعت سنة ١٩٢٥ وسيد بك البتانوني سنة ١٩١٠ في « دليل الحج » و« مرآة الحرمين » و« الرحلة الحجازية » على التوالي .

كما ذكر صادق باشا ، أو ثلاثة آلاف وثلثمائة كما ذكر رفعت باشا أو ثلاثة آلاف وخمسمائة كما ذكر البتانونى بك .

وإذا نزلت إلى جدة فلك أن تستريح فى أحد فنادقها أو أحد منازلها ، ففيها فندق للحكومة وآخر لبنك مصر ، وهى تعرف الفنادق من زمن بعيد ، ولذلك أدهشنى ما كتبه الاستاذ عبد القادر المازنى فى رحلته اذ قال : إنه ليس فى جدة فنادق ينزل إليها القاصدون ، وإنما ينزل الناس فى بيوت الاهالى فمن شاء استأجر منزلا بأسره ، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة.

فالواقع أن الفنادق بجدة قديمة وموجودة قبل رحلة الأستاذ المازنى ، ولعله وقد كان ضيفا على الحكومة لم يكن يعنيه كثيرا أن يبحث عن الفنادق .

ويؤكد وجود الفنادق فى جدة قبل وبعد رحلة المازنى ما كتبه محمد صادق باشا فى كتابه « دليل الحاج » سنة ١٨٩٦ فقد قال : « بجدة خمسة جوامع سوى ثلاثين زاوية ومحاريبها منحرفة من الشرق الى الشمال بثلاثين درجة ، ووابور طحين و ٣٠ خانا ولوكاندتان ومكاتب تلغراف ... »

كما أن رفعت باشا ذكر أن « بها حماما واحدا ونزلين « لوكاندتين » وأربعين قهوة وصيدلية . » وقد أشار لبيب بك البتانونى ايضا الى وجود فندق بجدة .

ولكى أقرب إلى الذهن شكل جدة لا بأس أن أشير إلى ما كتبه عنها لبيب بك البتانونى فى الصحيفة السادسة ، من رحلته الحجازية إذ قال: إن منازل جدة مبنية بالحجر الجبلى الذى يستخرجونه من الجبال القريبة أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر. ومساكنها كمساكن مدن الحجاز «مكة والمدينة» وهى أشبه بمساكن مصر فى عهد المماليك « وفى سوق السلاح كثير منها » يعنى أن بها غرفا كبيرة ولواوين واسعة ذات سقوف عاليـــة ونوافذ طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الروشن « أى المناور » ومصاريع نوافذها مصنوعة على غرار النوع المسمى « الشيش » الخ

وقد قال لبيب بك البتانونى إن شوارع جدة لا نظام فيها وأستطيع أن أقرر اليوم انها أكثر نظاما ، وأنها وإن لم تكن مرصوفة فإنها معتنى بعض الشىء بنظافتها ، كما أن هناك بعض المبانى الحديثة تماثل المبانى المصرية فى الأحياء العصرية بالقاهرة ومن ضمن هذه المبانى ما يشغله فندق مصر بجدة ، كما أن مبنى السفارة المصرية ليس من النوع العتيق .

كان علينا أن نسافر إلى مكة يوم أول فبراير الذى وصلنا فيه الى جدة ، والمسافة من جدة الى مكة بالسيارة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات مهما طالت ، فلو أننا تحركنا من

جدة فى الساعة الأولى بعد الظهر لوصلنا الى مكة فى الساعة الرابعة ، وكان ذلك هو تقديرنا .

وقد قابلنا وكيل المطوفين وأعربنا له عن تلك الرغبة وطلبنا اليه إحضار سيارة تنقلنا ، ولكنه عرفنا أن ذلك لن يكون قبل الغروب ، لأن عليه أولا أن يحضر الحجاج المصريين الذين وصلوا ، ثم يذهب الى بنك مصر ليحاسبه على أجور السيارات قبل قيامها من السويس . وقد حاولنا أن نقنعه أن أجر السيارة ثابت التحصيل فى جواز السفر ، ولكنه أبى أن يقتنع ، فانصرفنا حتى يتمم اجراءاته ، وذهبنا الى الفندق فاسترحنا قليلا ثم خرجنا نطوف جدة ونتعرف أحوالها وشئونها وكان أول واجب فى نظرنا أن نزور ديارنا المصرية هناك .

أرسلنا فى طلب عربة نطوف بها المدينة ، فجاءتنا عربة مقفلة من نوع ما يسمى الكومبيل فى العرف الدارج ، يجرها حصان واحد ، ضئيل الجسم هزيل تبدو عليه أمارات الجوع وركبتها مع صديق لى وتوجهنا فورا الى دار السفارة المصرية .

وهى دار أنيقة ذات طابقين : الأول منهما يرتفع عن الأرض بضع درجات ، والثانى له سلم من صالة الطابق الأول ، ويوجد بالطابق الأول مكان موظفى السفارة وعيادة الطبيب المصرى الملحق بها كما يوجد بالطابق الثانى مكتب القائم بأعمال السفير

وسكنه ، ولم نجد الياس بك اسماعيل القائم بأعمال السفير إذ ذاك ، لأنه كان غائبا فى مكة يستطلع أخبار من سبقنا من الحجاج ، ووجدنا موظفى السفارة قائمين بأعمالهم فأحسنوا استقبالنا وهم جد فرحين مسرورين بلقاء أهلهم ومواطنيهم . وإنك لتستطيع أن تتصور كم تلقى من السرور اذا تقابلت فى بلاد الغربة بواحد من أهل وطنك . وعلى قدر ما تتصور من الغبطة يمكنك أن تدرك كيف قابلنا كل منهم وكيف عرض علينا خدماته ومعونته وقدموا لنا القهوة المصرية والماء المثلج فشكرناهم ثم استأذنا فى زيارة بنك مصر فأرشدونا اليه . وهو بناء أحدث من بناء السفارة ومجاور لها ، ويشغل الدور الأول من عمارة فندق بنك مصر الذى تتوافر فيه كل وسائل الراحة ، وقد استقبلنا موظفو البنك بمثل ما استقبلنا به موظفو السفارة .

لقد كان سرورونا بالغا ، وكانت سعيدة تلك اللحظات التى قضيناها فى ديارنا وبين أهلنا فى جده ، وتلك آثار الجهود الجليلة التى بذلتها الحكومة المصرية فى إنشاء سفارة لنا فيها و آثار الجهود القومية التى أقام بهـــا بنك مصر فرعاً له وفندقا فيها . لم نكن غرباء إذن فى بلاد الحجاز ، ولم نشعر بالغربة يوما واحدا ولولا أعمال ومصالح وأرزاق تقتضينا سرعة العودة الى مصر لما شعرنا بوحشة أو حاجة إلى الرجوع السريع .

ركبنا عربتنا ثم طفنا حول المدينة من داخل أسوارها التى تحجب منظر البحر عن الشوارع ، ولم يمنعنا الحر عن هذا الطواف وقد روحنا به عن نفوسنا ، فالبلد «خفيفة الروح» على حد هذا التعبير

ثم استوقفنا الحوذى عند أحد المقاهى ونقـــدناه أجره وانصرف وجلسنا وطلبنا الشاى «وهو الشراب الشائع هناك» وطلبنا بعض الماء لنشربه واذا بالندل ينادى زميله ويطلب لنا شايا أسود وشربة . وقد أدهشنا هذا الطلب، فما نحن بحاجة الى شاى أسود ولا إلى شربة، ولـكنه عاد الينا فأفهمنا أنهم يسمون الشاى الأحمر هناك شايا أسود ويسمون الماء « شربة » وهكذا أحضر لنا ما طلبنا وقد ضايقنا فى جلوسنا بعض أتربة تتصاعد من الطريق ، كما أساء الى عواطفنا منظر المتسولين و كثرتهم : مئات من الأطفال والنساء والرجال يـكادون يـكونون فى حكم العراة يسود أجسامهم عدم النظافة يتسولون فى الطريق العام . و كثرة المتسولين هناك أمر طبيعى يتفق مع حالة البلاد الآن فهم فى حالة من الفقر والحاجة تدفعهم الى التسول، وقد أطمعهم فى ذلك عطف الحجاج عليهم واعتبارهم العطاء قربانا لله تعالى فى تلك البلاد . يضاف الى ذلك ان الحجازيين لا صناعة لهم ، بل هم عاجزون عن إدراك الصناعة و كنهها . ولذلك تـكاد

لا يجد بين الحجازيين منهم غير بعض طبقات محصورة فى الموظفين والتجار وبعض الملاك .

ولو عنيت حكومة الحجاز بأمر هؤلاء لاستطاعت أن تخلق منهم صناعا لا يكونون عالة على أحد ، ولا استطاعت أن تنتفع من صناعتهم بما يمكن أن تحصله من ضرائب . وأعتقد أن من أول ما يمكن أن يشتغلوا به بناء السفن ودبغ جلود الاضاحى وتجفيف لحومها وما إلى ذلك من الصناعات التى تناسب جو بلادهم وطبيعة أرضها وارزاقها كاستخراج اللؤلؤ من البحر .

إن الحجاج على اختلاف أجناسهم يذبحون فى أيام العيد نحو نصف مليون من الخراف لها لحومها ولها جلودها ، فتصور أن أغلب هذه اللحوم لا ينتفع به ، لأنها أكثر من حاجة الحجاج والسكان ، كما أن كل هذه الجلود تضيع هباء لا يستفاد منها وهى ثروة لا يستهان بها سيما اذا ضيف اليها ما يذبحه أهل البلاد خلال العام وفى المواسم .

الساعة الآن السادسة مساء بالزمن الأفرنجى ، وهو غير معروف فى الحجاز ، لذلك أدرنا عقارب ساعتنا ، فنحن الآن فى الساعة الاولى مساء « بعد المغرب بساعة » وهذا هو المطوف قادم يطلب الينا أن نستعد للسفر الى مكة . فالسيارة على وشك الوصول الينا لتضمنا الى ركابها .

لكل حاج مطوف ، ولا يصرح بالنزول الى جدة لمن لا مطوف له ؛ ولذلك تحصل أجور المطوفين فى مصر مقدما قبل السفر ، كما تحصل أجور السيارات . ولكل مطوف مقر فى جدة يمكن التوجه اليه والاستراحة فيه نظير أجر زهيد لمن لا يرغب فى الذهاب الى الفندق أو لمن لا يجد محلا خاليا فيه لكثرة النازلين فى بعض الأحيان . ولقد كان من حسن حظنا أن وجدنا محلا خاليا فى فندق الحكومة الحجازية حيث تتوافر سبل الراحة . وهو فندق منظم يتألف من ثلاث طبقات ، وبه صالون جميل متسع مفروش بالأبسطة الفخمة ، ومطل على البحر ، به مسرة « تليفون » غير مسرة الفندق نفسه ويتبعه مقهى صغير لمن يريد الجلوس فيه ، وبهذا المقهى آلة للاذاعة « راديو » ولا يقل عن فندق مصر الحديث سوى أن بالأخير تيارا كهربيا يولده مولد « موتور » خاص ، وهذا يكثر فى أغلب المنازل الكبيرة بجدة ، فضلا عن حداثة مبناه . أما فندق الحكومة فيضاء بالمصابيح « الكلوبات » البلدية التى يوجد واحد منها فى كل غرفة .

وصلت السيارة وحملنا عليها متاعنا وجلسنا فى انتظار قيامها طويلا ، وسألنا عن سبب هذا التأخير ، فقالوا إن وكيل المطوفين أمر باحضار السيارات ، ولكنه لم يعط الإذن بقيامها ، ولا بد أن يكون هذا الإذن مكتوبا . ثم جاء الإذن ولكن السيارة

ظلت واقفة ؟ ! لماذا ؟ ! لأنه لابد مع هذا الإذن من أن تكون لدى السائق أوراق بعدد الركاب تدل على أن الراكبين دفعوا ضريبة المرور ، وهذه الضريبة تحصل أصلا فى مصر مع أجور السيارات ، وهى ما يسمونه هناك « بالكوشان » وعند ما تتم هذه الإجراءات تتحرك السيارة قاصدة مكة .

تمت هذه الاجراءات حيث كانت الساعة الرابعة ليلا « عربى » وجاء السائق وأخبرنا أنه مستعد للقيام فقمنا الى السيارة وركبناها .

وبدأ السائق يسيرها . . .

من جدة إلى مكة ومن الدار إلى الحرم

كنت أظن أننا سنستمر فى سيرنا حتى نصل إلى باب الحرم أو على الأقل إلى حيث نقيم بمكة . ولكن السائق طاف بنا فى شوارع جدة ثم وقف ! هذه هى دار البوليس التى نبرز فيها اوراق الكوشان !

ونزل السائق وغاب فترة حتى أتم عمله ، ثم عاد وانطلق بنا إلى الباب الشرقى للمدينة ، وهو الباب الموصل إلى مكة من بين تسعة أبواب فى سور جدة المخمس الاضلاع ، وهناك استوقفه رجال البوليس الواقف بباب المدينة حتى اطلعوا على الأوراق وصرحوا لنا بالرحيل .

سرنا بعد ذلك فى طريق متسع هو فى الجملة بين رملى وحجرى ، فتارة نرى أخاديد الرمال ، وتارة نرى الجبال ، وقد رسمت السيارات لمسيرها طرقا خاصة ولكل من العجلتين مجرى تسير فيه ، فاذا أرادت السيارة أن تنتقل منه فلابد من إحداث حركة لها أثرها فى رءوس الركاب خصوصاً فى الاماكن التى لا رمال فيها أو بها رمال وكميات من الحجارة بين كبيرة وصغيرة قد ترتطم السيارة فى إحداها ، وقد تصطدم بأحدها فجأة ثم تنزل كذلك فجأة فتحدث

انقلابا بين الركاب فى داخلها ، وقد يرتطم رأس الواحد منهم بسقف السيارة فيجرحه .

ولم يحصل لنا لحسن الحظ شىء من ذلك ، فقد كان سائقنا حريصاً جداً وماهراً اعتنى بنا وبراحتنا بمقدار حذقه من جهة ، وعنايتنا به من جهة أخرى ، لكن كثيرين قد حصلت لهم حوادث سمعنا بها فآلمنا ذلك .

سرنا فى طريق متسع محاط بالجبال والرمال فى مواضع مخيفة ، وكانت السيارات فيها كثيرة بين ذاهبة وآيبة ، وكانت الذاهبة ملأى بالركاب ، أما الآيبة فكانت عائدة لإحضار ركاب من جدة .

وكان الطريق مع ذلك مكتظا بالراجلين المشاة ، وقد شاهدنا واحداً يركب الحمار ، وواحدا يركب عربة ذات عجلتين يجرها جواد واحد .

هؤلاء المسافرون جميعاً المدفوعون بحب الله ، القائمون لتأدية فريضته ، الساعون إلى بيته ، المحتملون فى ذلك أسباب الغربة ومشقة الطريق ، كل هؤلاء عاكفون على التلبية مستمرون فى الحمد لله والثناء عليه .

ولقد يبهرك الإخلاص ومظاهره ، والتفانى فى العبادة وأثره عند ما تقع عينك على شيخ نيف على التسعين أو المائة أضناه الزمان ، وهو يسير على قدميه ليقطع هذه الأميال ، خلوا من الطعام

والشراب ، مأخوذا بقوة روحية حملته من بلاد بعيدة ، وهو يمنى نفسه بالحياة ! حياة الدين والدنيا .

نعم لا حياة الا برضى الله ! أما أولئك الذين شغلتهم ملاهى الدنيا عن جد الآخرة فقد خسروهما معا .

إن فى العمل للباقية حياة دنيوية لذيذة هانئة ، فان العامل لها لا يعوزه مرح ولا صحة ولا علم ولا مال . إذ العمل للآخرة لا يمنع النفس من أن تنال حظها من اللهو البرىء ! وليس العمل لله بعائق عن الجد فى الدنيا للحصول على ثمارها الحلوة الشهية الشريفة .

والأديان جميعاً تحض على التزود من الدنيا للدنيا والآخرة ، ومن الحياة للحياة والموت ، ولذلك قيل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وابتغ فيما أتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا وأحسنْ كما احسنَ اللهُ أليكَ ،

وهذا صريح فى أن العمل للآخرة مقترن بوجوب العمل للدنيا .

ولذلك كان من أهم شروط العبادة السعى فى الرزق وترفع المرء عن أن يكون عالة على الناس .

بل إنى ليظهر لى مما قرأته وشاهدته أن أوامر الأديان ونواهيها إنما وضعت لحكم دنيوية ، وما الدين إلا وسيلة للعيش

الرغيد فى الدنيا والهناء الدائم بعد الموت . فليس هناك أمر ديني إلا وله فى الدنيا صالحة ، وليس هناك نهى ديني إلا وله فى الدنيا حكمة ، ولولا أن مجال هذا البحث واسع لضربت لك الأمثال كثيرة متعددة ، وها هو الحج لست أريد أن أحدثك عن جانبه الديني ، فهو من حيث الدين فريضة وطاعة عليك أن تقوم بها دون أن تناقش فى أسرارها ، وتؤدى مناسكها دون أن تعرف أسباب وجوبها ، ولكنى أريد أن أتحدث عن فوائد الحج ومناسكه من حيث الدنيا فان الله سبحانه وتعالى يقول «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم . . .»

ولست أريد أن أذكر من هذه المنافع ما يستفيده الراحل من العرفان ببلاد جميلة لها مزاياها الطبيعية التى يسافر من أجلها السائحون فى مختلف الانحاء ، ولا ما يفيده أهل الحجاز من زيارة الحجاج لهم .

انما أريد أن أذكر ما يجنيه المرء عادة من التعارف بالناس فى جهات متعددة ، وثمرة ذلك فى رواج التجارة وتبادل الأرزاق .

والحج مهذب للنفوس يدفعها إلى الفضيلة ويدفع الرذيلة عنها ، والفضيلة والرذيلة تنطوى تحتهما كل معانى الحياة . ينطوى تحتهما القيام بالواجب وعدم القيام به . والعدل والظلم والعطف

والقسوة ، والإعطاء والحرمان ، واحترام الناس وازدراؤهم والكمال والنقص .

والحج مساواة بين الناس : الكبير والصغير ، سواء اكان ذلك فى الإحرام أم فى الطواف والسعى والدعاء ، تزول فى الحرم الفوارق بينهم فلا يكون لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

لهذا أعتقد أن الحج على ما فيه من فكرة دينية فإن له حكمة دنيوية ، وهكذا كل الفرائض .

تابعت السيارة بنا سيرها والطريق على ما وصفت ، وكنت أتوقع بعد ما سمعت أن السيارة ستقف بنا فى كثير من الأماكن ولكن سائقنا لم يقف بنا إلا حيث أراد هو أن يقف ، فاستمر سيره حتى رأينا أنوارا قليلة ساطعة تتلألأ فى ظلام الليـــل ، وإذ وصلنا إليها وجدنا دارا للبوليس الذى أقبل علينا واطلع على أوراقنا « الكوشان » ، ووجدنا مقهى ذا كراسى ودكك متناثرة فى مكان قريب من الطريق ، فابدينا رغبتنا فى النزول للراحة فيها ، وبقينا بها نصف ساعة صلى فيها من صلى وأكل فيها من أراد ، وتناولنا بعض الشاى والقهوة ، وانصرفنا ، وكانت تلك هى محطة أم السلم .

سرنا بعد ذلك عشرين ميلا حتى وصلنا إلى قرية كبيرة هى محطة للسيارات والقوافل ، وهى بطبيعة الحال أكبر من أم سلم ، وبها مطعم واستراحة « لوكاندة » ونقطة للبوليس

استرحنا فيها مدة يسيرة ثم سرنا فقال لنا السائق : إنه قد بقى بيننا وبين مكة نحو ثلاثين ميلا ، وأنه ستقابلنا محطة الشميسى « مكان الحديبية » فأعربنا له عن رغبتنا فى أن نواصل سيرنا إلى مكة رأسا ، وأن ما قضيناه فى الاستراحتين السابقتين كاف خصوصا أن الليل قد فات أكثر من نصفه ونحن نريد الطواف والسعى قبل الراحة ، وعلى هذا اتفقنا .

كانت رحلة جميلة ، وكان الجو صافيا ، وكانت النفوس فرحة وكانت القلوب مستبشرة ، ولم يقف لسان أحد عن التلبية والتهليل والتكبير ، وكيف تفتر الألسنة عما رغبت فيه ورحلت من أجله ؟

الطريق بدوى طبعا ، والمبانى التى عليه بدوية أيضا ، ولعل وعورة الطريق من أهم العوامل التى تستغرق الوقت وتجهد القوى ، ولذلك عمدت مصر الى اعتزام إصلاحه ورصفه ، وهى جادة فى اتخاذ الأهبة لذلك ، وعلى الرغم من الأماكن الرملية والصخرية التى مررنا بها لم تتعثر بنا السيارة وإن كنا قد شاهدنا بعض السيارات متعثرا فى الطريق ، ومررنا بالشميسى وغادرناها ، وبعد قليل وقف السائق فجأة ! وقال هذا حد الحل والحرم !! نحن الآن فى الأرض الحرام ، هذا مكان البيعة ، وهنا المسجد الذى أقيم مكان الشجرة التى بايع المؤمنين تحتها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسرنا قليلا وأصبحت مكة على مرأى العين . ولمكة دعاء يتلوه المرء عند ما تقع عليها عينه « اللهم إن هذا الحرم حرمك

والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة وأعمال سيئة ، أسألك مسألة المضطر اليك المشفق من عذابك أن تستقبلنى بكريم عفوك ، وأن تدخلنى فى فسيح جنتك ، جنة النعيم . اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك فحرّم لحمى ودمى وعظمى على النار ، اللهم آمنى من عذابك يوم تبعث عبادك ، أسألك فإنك أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ، أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

الآن نسينا متاعب السفر ، نسينا مشقة الطريق . نسينا ما لقينا من مشقة انتظار السيارة ومرورها على نقط البوليس ، ونسينا أولادنا وأهلنا ، نسينا مصر ، نسينا أعمالنا ومتاعنا ، لم يعد لنا فى الذاكرة غير الله ولا شاغل لنا إلا حرمه . اللهم إن الحرم حرمك ، اللهم إن العبد عبدك ، اللهم لا ظل إلا ظلك ، اللهم لا ملك الا لك ، اللهم لا مرجع إلا اليك . لكل قضاء مرد إلا قضاؤك ، ولكل كلم رجعة إلا حكمك ، مالك الملك المسيطر على العالم ، خالق النفس والشمس والقمر .

ليس لنا إلا أن نسأل الله العفو والعافية ، نسأله عفو القادر وجنة الخلد يوم يبعث عباده .

أى لذة تشعر بها الروح الطاهرة ، وأى رهبة تتملك النفس عندما ينادى المنادى : هذا حدّ الحرم ؟ !

أى نشوة تسيطر على الروح إذ يرى من بعيد أضواء متناثرة ويقال له إن هذه أنوار مكة ؟!

هذا سائق السيارة وهو يرتاد المكان عدة مرات كل يوم لا يتمالك نفسه عندما يصل اليه أن يقول : الله أكبر ، هذا هو البلد الحرام ، وقد سألته فى ذلك فقال : ليس أسعد لروحى من وقوفى هنا كل مرة أحضرها ، لأنى أوخذ كلما وصلت الى هذا المكان ، وبمقدار ما تتملكنى هزة السرور عند الدخول فيه أشعر بالأسف عند مغادرتى له ، وكيف لا وأنا — هكذا قال — اذا ما نمت هنا كنت كالعابد فى مكان آخر ؟ أليس النائم فى مكة خير من العابد فى غيرها ؟ أليست الصلاة فيها خير من آلاف فى غيرها ؟

لك أن تعتقد أن الرجل مبالغ ، ولكن ليس لك إلا أن تفسر أن السحر والوجدان الدينى هما اللذان يمليان عليه هذه المبالغة .

دخلنا مكة ، وهى تبدأ بميدان فسيح به دار للبوليس وقفت عنده عدة سيارات وعربات لنقل المسافرين ، وجاء الضابط يستقبل السيارة ويطلع على أوراقها ، فحيانا وأحسن استقبالنا وعلم من زميلى أننا من رجال المحاكم المصرية فدعانا للنزول إلى داره لنطلع على أعمالها ، وقد حاولنا أن نعتذر له ، لأن الليل أوشك أن يموت ، وأن لدينا أعمالا لا مناص من أدائها قبل انقضائه ، ولكنه صمم على دعوته فلم يسعنا إلا النزول على ارادته وكان المطوف فى استقبالنا فاستمهلناه حتى ننتهى من هذه الزيارة .

الموظفون الحجازيون قوم فى غاية الظرف والأدب: استقبالهم حلو، وحديثهم حلو وكلامهم عذب، ووجوههم سمحة، ولولا أن فى إجراءاتهم وتشبثهم بالقيود الشكلية صلابة لما وجدت خيرا منهم اداء لعملهم.

دخلنا نقطة البوليس، وهى دار صغيرة تتألف من ثلاث حجرات وصالة صغيرة خصصت الغرفة اليسرى لمكتب الضابط، وهى تحتوى على مكتب من الخشب وكنبة ومسرة تليفون، وفى نافذتها أوانى الماء، وقد خصصت الغرفة اليسرى لراحة الجنود، أما الغرفة الصغيرة التى فى مقابل الباب ففيها أمتعة العساكر وملابسهم.

أطلعنا الضابط على دفاتره، فإذا هى معدة بعضها لنظام العمل وبعضها لقيد الداخلين إلى مكة والخارجين منها، لم يفرط فى صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها. ومن هذا استطعت أن أتبين أن هذه النقطة هى مفتاح المدينة، وأن كل ما يجرى فى المدينة محفوظ فى سجلات هذه الدار.

فمنها يمكن حصر الركاب والسيارات والبضائع والجمال والحمير التى تمر بهذا المكان — ولا تمر غيره — ويمكن بعدئذ ضبط ايراد الحكومة من هذه الحركة، اذ انها على ما علمنا تساهم فى شركة السيارات.

لم يطل وقوفنا مع الضابط، لأنه كان مشغولا بملاحظة السيارات

الداخلة وإحصاء من فيها وما فيها ، وركبنا سيارة مرت بنا فى فضاء واسع ، ثم فى شارع متسع ، ثم فى شارع الشبيكة حيث أعد لنا مطوفنا محل الإقامة .

دخلنا المنزل فاسترحنا قليلا ثم خرجنا لأداء ما علينا من شعائر الدين .

والمنازل فى مكة كالمنازل فى جدة ، وكان المنزل الذى أعده لنا المطوف مؤلفا من خمس طبقات نزل قاض مصرى مع زوجه فى أولاها ، ونزلت مع والدى وخادمنا فى الثانية ، ونزل زملاؤنا الثلاثة رجال المحاكم فى الثالثة ، ونزل صاحب البيت فى الرابعة ، أما الطابق الأرضى فكان حوانيت للتجارة .

وهكذا كان هذا البيت كأنه محكمة مصرية كاملة ، ويأخذك الدهش اذا رأيت مصادفة أن صاحب الدار أيضا قاض حجازى ، ويسكنه من الحجيج قاض مصرى ، ووكيل نيابة ، وسكرتير نيابة ، ورئيس كتاب احدى المحاكم المصرية ، وليس به عدا هؤلاء سوى بعض الأهل والخدم .

وكانت مصادفة جميلة ظن معها رجل حجازى ظريف أن نكون قد أزمعنا احتلال دار القضاء عندهم ! . والدار التى نزلنا فيها تعتبر مثلا طيبا للدور فى مكة ، فإنها من أحسن مبانيها بعد قصر الملك ودور الأمراء والوزراء ودار الحكومة . وتكاد كل المنازل تتألف من حجرة واحدة بداخلها اخرى وعلى بابها

دورة المياه كما تكاد كل الحجرات تكون مؤثثة « بالمصاطب » الدائرة حول الجدران ، والمفروشة بالحشيات والوسائد ، وهى تستعمل للجلوس نهارا ، فاذا جاء الليل وضع عليها فراش آخر ورفعت فوقها الكلات واستعملت أسرة للنوم . ومرافق المياه هناك خالية من النظام والنظافة . فطلاء حوائطها لا يكاد يعتبر طلاء ، فهو طبقة رقيقة من الجير على الأحجار لا تتوسطهما طبقة من الدهان كالتى توضع فى مصر . لذلك لا أخفى عليك أن الإقامة فى هذه المنازل لا تتيسر معها الراحة . ولذلك كنت مضطرا أن أغتسل فى حمام آخر خارج المنزل كلما أردت الاستحمام ، ولولا أن المطوف كان قد استأجر البيت ودفع أجره لصاحبه ، ولولا أن زملاءنا عز علينا فراقهم لا نتقلنا إلى فندق الحجاز للإقامة فيه ، ولكنا احتملنا كل شىء لا يحتمل من أجل هؤلاء الرفاق .

سندرس مكة غدا أما الآن فنحن ذاهبون الى الحرم نطوف ونسعى ، ولدينا لمكة أسبوعان ندرس فيهما ما شئنا أن ندرس وما تمكننا الفرصة من دراسته . كان لزملائنا رأيان أحدهما أن نستريح إلى الصباح ثم نقوم للسعى والطواف ، وثانيهما أن نقوم اليهما فورا فالأمر لا يحتمل التأخير . وكنت صاحب الرأى الثانى ، ولم أقبل بشأنه أى جدل « لا جدال فى الحج » وكانت حجتى اننا قادمون من بلاد نائية للطواف والسعى فلا معنى لتأجيلهما عند ما نصل إلى مكة ؟ ! هذا لن يكون . إنى

ياسيدى ذاهب إلى الحرم رافقتمونى أوا نفردت عنكم فلا تضامن فى العبادة ، وكل ميسر لما عزم عليه . بماذا نحاور ضمائرنا إذا فات الوقت ولم يبق لدينا سوى أسف ولات ساعته ، وندم لا يجدى ولا يفيد .

انضم اخوانى لرأيى وقمنا فى ظلام الليل متجهين الى الحرم .

ليس فى مكة إضاءة لشوارعها ، والناس يسيرون على هدى مصابيح يحملونها ، وكانت معنا « بطارية » اضأناها وسرنا فى خطى مطوفنا وهو ينادى بأعلى صوته « اللهم إن هذا الحرم حرمك والبلد بلدك والأمن أمنك » ونحن ثمانية نتبعه نردد هذا الدعاء فى صوت مرتفع متهدج يشق عنان السماء .

ليس لقانون التجمهر سلطان فى بلاد الحجاز ، ولو كان نافذا هناك لما كان له علينا من سبيل ، فما نحن مرتكبون وزرا ، وما نحن عازمون على ارتكابه إنما نحن ننادى بالدعاء لله صاحب السلطان وما نخشى أن يكون لصوتنا تأثير فى راحة السكان والنائمين ، فما أعدت مكة للنوم أيام الحج ، والآلاف الهابطون اليها يسيرون فى الطرقات كما نسير . ولو أننا ذهبنا إلى الحرم راكبين أو راجلين صامتين ما كانت نفوسنا لتستريح إلى حسن اداء الواجب ، ثم ما كنا لنشعر بروعة العبادة ورهبة المكان .

وهكذا سرنا حتى وصلنا إلى الحرم وطفنا حوله بعض الطواف لنصل إلى باب السلام ، فما وصلناه حتى أشار لنا المطوف بالوقوف ثم قال إن الدخول انما يكون بالرجل اليمنى وفجأة أشار لنا بترديد دعائه ثم رفع صوته فى باب السلام وقال : «اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، تباركت ربنا وتعاليت ياذا الجلال والاكرام ، اللهم افتح لى أبواب رحمتك ومغفرتك وأدخلنى فيها بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله » .

ذلك أنه يستحسن أن يكون دخول الحرم لأول مرة من باب السلام ، ويحسن عند الوصول أن يكون الدعاء بما مر، ثم دخلنا بيمنانا ونحن مأخوذون بجلال البيت ومهابة صاحب البيت وقد رأينا الآلاف هناك يعبدون الله كأنما الليل لم يخلق لمكة وحجيجها ، أو كأنهم وقد جاءوا الى بيت الله يعملون بما أمر الله : «قم الليلَ الاقليلاً نصفهُ أو انقص منه قليلاً أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، انا سنلقى عليكَ قولاً ثقيلاً ان ناشئةَ الليل هى أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ، ان لكَ فى النهار سبحاً طويلا، واذكر اسم ربكَ وتبتل اليه تبتيلاً ، ربُّ المشرقِ والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلاً » وهم يعتقدون أنهم لو ناموا الليل لضيعوا وقت العبادة فى مكة وهى دار للعبادة وقد قطعوا آلاف الاميال مسافرين إليها لهذه العبادة وحدها

وما وقع نظرنا على البيت الشريف حتى انطلق المطوف ينادى « لا اله الا الله والله أكبر » وبعد أن هتف بهذا ثلاثا قال «لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، أعوذ برب البيت من الكفر والفقر ومن عذاب القبر وضيق الصدر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتكريما وتعظيما ومهابة ورفعة وبرا يا رب من شرفه وكرمه وعظمه ممن حجه واعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما ومهابة ورفعة وبرا ، ثم دخلنا نؤدى طواف العمرة حول بيت الله الحرام .

ليس فى معاجم اللغة العربية ولا فى موسوعات اللغات الأخرى ما يستطيع به المرء أن يصور منظر الحرم فى جلاله أو منظر الكعبة فى قدسيتها والناس يطوفون حولها ، بل ليس فى قدرة التصوير المتحرك « السينمائى » أن يصور صورة واضحة لهذا المنظر ، فإنه مهما كان واضحا فلن يصور مظاهر المهابة والسحر الروحى والرهبة التى يؤخذ الناس بها، وليس فى قدرتى أن أوضح السبب فى هذه الروعة ، ومهما يكن فليس السبب بناء الكعبة وما حولها من شعائر، إنما هو رابطة القلوب واجتماعها حول الدين الحنيف الذى نشره محمد عليه الصلاة والسلام وأرسل له من لدن عزيز حكيم . وما الكعبة وما الحرم إلا رمز التقديس والعبودية لله تعالى .

تعالوا يا رفاق نؤدى واجب الخضوع والابتهال إلى الله تعالى بالطواف حول الكعبة المقدسة ، تعالوا نمر من باب بنى شيبة لنصل اليها ، وتقدموا إلى الله عند هذا الباب داعين قائلين « ربِّ ادخلنى مُدخل صدقٍ وأخرجنى مُخرجَ صدقٍ واجعل لى من لدنكَ سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً ، وننزلُ من القرآنِ ماهوَ شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين الا خسارا »

تعالوا بنا ننوى الطواف معا سبعا .

حول الكعبة

نوينا أن نطوف للعمرة سبعة أشواط، وأقبلنا على ما بين الركن اليمانى والحجر الاسود وقلنا «بسم الله الرحمن الرحيم ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرةِ حسنةً وقنا عذاب النار» ثم تقدمنا حتى حاذينا الحجر الأسود لنبدأ الطواف منه ووقفنا مستقبلينه قائلين «بسم الله والله أكبر ولله الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. اللهم ايمانا بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ اللهم إنى أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار» ثم تقدمنا نحو الحجر الأسود فقبلناه على رغم الزحام الشديد، فقد كان الزحام بالغا أشده بحيث لا يتصوره الذهن ولا تدركه العين ولولا معونة جندى واقف بجواره لما تيسر لنا أن نقبله وما استطعنا الوصول اليه، ومع ذلك فلم نستطع النجاة من الزحام الا بشق النفس وبنضال أدى إلى وقوع منظرنا فانكسر وضاعت كل أجزائه وأعضائه.

وأخذنا نعد الأشواط وندعو فى كل منها بدعاء، حتى اذا حاذينا الركن اليمانى استلمناه فلما اقتربنا من الحجر الأسود قلنا «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النارِ»

وإذا حاذينا الحجر الاسود كبرنا وحمدنا الله حتى أتممنا الطواف سبعا وختمناه بقولنا « اللهم اجعله حجا مبروراً وسعيا مشكوراً وذنباً مغفوراً ،رب اغفر وارحم ، واهدنى السبيل الأقوم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الاكرم »

فلما أتممنا الطواف توجهنا الى الملتزم « حائط الكعبة بين الحجر الأسود وبابها » ووضعنا عليه صدورنا وفرشنا أذرعنا وهتفنا فى ذلك المكان حيث يستجاب الدعاء « اللهم يا رب البيت العتيق اعتقنى واعتق رقابنـــا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وإخواننا وأولادنا من النار وأعذنا من كل سوء وأقنعنا بما رزقنا وبارك لنا فيه يا ذا الجود والكرم والفضل والمنن والعطاء والإحسان ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم إنى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم بأعتابك متذلل بين يديك أرجو رحمتك وأخشى عذابك يا قديم الإحسان . اللهم إنى أسألك أن ترفع ذكرى وتضع وزرى وتصلح أمرى وتطهر قلبى وتنير لى قبرى وتغفر لى ذنبى ، وأسألك الدرجات العليا فى الجنة »

فلما انتهينا من هذا الدعاء انتقلنا إلى مقام ابراهيم فصلينا ركعتى الطواف ودعونا الله ومررنا على زمزم فشربنا منهـــا هنيئا وقلنا « اللهم إنى أسألك علما نافعاً ورزقا واسعاً وشفاء

من كل داء. ثم عزمنا على الخروج للسعى بين الصفا والمروة ، وكان من الجائز أن نشير اليه ونقبل ما أشرنا به ، خصوصاً وقد لقينا فى تقبيله شدة بالغة ولكن نفوسنا أبت الا أن نفعل ، فبذلنا جهودنا حتى وصلنا اليه ونلنا ما اشتهينا . وبعد أن فرغنا من الطواف وتوابعه خرجنا الى السعى مسرعين .

« ان الصفا والمروةَ من شعائر الله ، فمن حجَّ البيت أو اعتمرَ فلا جناحَ عليهِ أن يطوف بهما ومن تطوعَ خيراً فإن الله شاكر عليم »

وارتفعنا على درج الصفا ونوينا السعى وقلنا الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، ثم اتجهنا إلى المروة داعين ذهابا وجيئة موالين حتى قطعنا الأشواط السبعة ، وكنا إذا ما وصلنا إلى العمودين الأخضرين فى شارع المسعى هرولنا وأسرعنا فى مشينا إسراعا هو فوق المشى ودون الجرى .

الناس آلاف فى هذا الشارع والأصوات فيه تشق عنان السماء ، وكنا نظن أنهم يتناقصون فإذا بهم يتزايدون ذلك أن العبادة تحرض من طاف أن يعاود الطواف مرة أخرى ، وتدفع من سعى إلى أن يعاود السعى ، وقد اقترب الفجر وبدأ الهاجعون يستيقظون من نومهم إلى طوافهم وإلى سعيهم .

انتهينا من هذا كله وتوجهنا إلى حيث حلق كل منا بعض

شعر رأسه ، وبهذا تحللنا من الإحرام ، وحل لنا كل ما كان محرماً علينا من قبل .

عدنا الى المسجد الحرام لصلاة الفجر ، واذا بالناس بعضهم فوق بعض متزاحمين ، وإذا بالمؤذن يؤذن بصوت جميل أخاذ ثم قامت الصلاة والناس حول الكعبة متقابلة وجوههم ، فإن كل جانب من جوانبها قبلة يتجه اليها الناس فى الصلاة .

ليس هنا ما يشغلنا غير الله وعبادته ، وليس متجليا غير حياة الروح، ليس هنا غير محبة خالصة ، خالية من الغرض ، غير معلولة بعلة .

أدينا ما علينا ولم يبق غير التزود من التقوى وإنفاق الوقت فى التقرب الى الله تعالى ، فلنذهب الآن الى منزلنا نستريح قليلا ثم نعود الى المسجد نتعبد فيه ماشاء الله أن نتعبد ، وندرس تاريخه و آثاره .

نحن الآن قبيل الظهر ، وبعد صلاته سنعود إلى دارنا ونجتمع معا أيها الرفاق على مائدة غداء واحدة عربونا لصداقة مقمية وعلاقة دائمة فى سبيل الله ، فقد أعددت لكم اليوم طعامكم ، وسنذهب بعد ذلك إلى الحرم نصلى العصر ، ونبقى حتى نقضى صلاة العشاء ، ولنؤجل دراسة مكة إلى غد أو بعد غد حتى نروى غلتنا من هذا المكان المقدس . ولنعد الطواف تهجدا وتقربا

وزلفى لله جل شأنه وتعـــالى اسمه ،وتقدست عظمته بين الأنام هكذا قلت لرفاقى ، وكان ما أردته .

هذه هى الكعبة !

هذا هو الحرم !

هذا هو المسجد الحرام .

هذا الذى ورد ذكره فى الكتاب الحكيم :

« قدنرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطرَ المسجدِ الحرامِ وحيثُ ما كنتم فولوا وجوهكم شطرهُ » « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهـــكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة »

أجمع المفسرون على أن المسجد الحرام هو الكعبة ، ولذلك يولى المرء وجهه شطرها فى صلاته . وليس المقصود اذن هو حرم المسجد أو ما أضيف اليه من فضاء ، ذلك الفضاء الذى كان موجودا منذ القدم ثم بنيت فيه منازل هدمت بعد ذلك وأضيفت الى المسجد الحرام لزيادة المساحة .

يدل على صحة هذا التفسير أن الناس داخل الحرم يولى كل منهم وجهه شطر الكعبة ، فيقف الى أى جانب من الجوانب ويصـــلى مادامت الكعبة أمامه ، ولهذا ترى المصلين وجوههم

متقابلة ،منهم من يتجه نحو الشرق ،ومنهم يتجه نحو الغرب ومنهم من يتجه إلى جهات أخرى ، ولو كان المقصود بالمسجد الحرام المسجد نفسه لاتجه المصلون إلى جهة واحدة من جهات الكعبة .

هذه هى الكعبة « أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين »

ليس هناك مجال للقول بأن هناك بيوتا وضعت للناس قبل ذلك البيت الذى ببكة . فهناك من يقول إن بيوتا أخرى كانت موجودة قبله ، وأن الترتيب الذى نزل فى القرآن عن أولوية بيت مكة إنما هو الأولوية من حيث البركة والهدى ، فإن الأولوية على هذا غير مفضلة على أولوية الوضع . ولعل هذا الرأى هو الذى بعث الكثيرين إلى القول بأن بيت بكة إنما هو من عهد آدم .

نعم لقد جاء فى « شفاء الغرام » للتقى الفاسى أن الكعبة قد بنيت عشر مرات أولاها بناء الملائكة وثانيها بناء آدم .

وصف الكعبة

والكعبة فى وصفها الحالى بناء شامخ قائم فى وسط المسجد بالغ الروعة والفخامة ، مرتفع شاهق الارتفاع ، فهو وان كان غرفة واحدة ، إلا أنه مرتفع خمسة عشر متراً تقريبا ، ولهذه الغرفة باب يفتح إلى الجهة الشرقية ، ويرتفع عن الأرض نحو المترين وفيما عدا الارتفاع فهى بناء يكاد يكون مربعا ، عرض كل

ضلع من أضلاعه نحو العشرة الأمتار أو يزيد . . ويخيل إلى أن ضلعيه الغربى والشرقى يزيدان نحو متر عن الضلعين البحرى والقبلى .

هذا البناء الشامخ مستور من كل مكان خارجى بكسوة فاخرة ، ترسلها مصر فى كل عام موشاة ومطرزة أحسن تطريز داكنة اللون ، مصنوعة من الحرير ، كما أنه مكسو من الداخل كذلك .

لقد شغفت نفسى بدخول هذا البيت العتيق ، والدخول ليس بالأمر اليسير ، فإن للكعبة مفتاحا له أمين يدعى الشيخ الشيبى ، وهو مولى عليها فلا يدخلها أحد إلا بارادته ، وهذه الارادة قد لا يكفى المال القليل فى الحصول عليها ، ولا مناص بعد المال من توصية أو معرفة .

حتى فى عبادة الله ودخول بيته يقف الخادم حائلا يأذن لمن يشاء ويمنع من يشاء كما هو الحال فى أمور الدنيا ! !

ان هذا البيت وضع للناس !

أفلا يكون الناس أحرارا فى دخوله ؟ ؟ وإذا خيف من أن يمسوه بسوء فإن اتخاذ العدة للنظام كفيلة بصيانته ! .

لكن هؤلاء المكيون معذورون فى نظرى ، لأن الحجاج يندفعون اندفاعا شديداً فى كل مناسكهم . . فهم إذ يريدون الطواف لا يقنعون ، واذ يريدون تقبيل الحجر الأسود

لا يشبعون . واذا استلموا الركن اليمانى لا يتركونه ؟ فكيف يطلب الى آل شيبى أن يتركوا الناس أحراراً فى ذلك ؟ يضاف إلى هذا أنه مصدر إيراد كبير لعائلة كبيرة من أقدم عائلات مكة.

كانت معى توصية فكان الترحيب بى من آل الشيبى بالغا والحفاوة كبيرة ، فصعدت على السلم ودخلت، فما وصلت الى الباب حتى أخذتنى رهبة هزت كل جوانب نفسى هزاً عنيفا .

ما سبب هذه الرهبة ؟ ؟ ولست إلا داخلا حجرة كالحجرات التى أدخلها عدة مرات فى كل يوم . وما أظن الرهبة قد تولتنى من الرائحة الزكية التى فاح أريجها فى هذه الغرفة المقدسة ، ولا أظن أن للشيخ الشيبى تأثيراً يرهب النفوس ويدخل عليها هذه الحالة التى سرعان ما اعترتنى .

ما هذا الخشوع وما هذه الروعة التى جعلتنى حين أرشدنى الأمين الى المكان الذى صلى فيه النبى عليه الصلاة والسلام[1] لم أستطع أن أذهب اليه لشدة ما بى لولا أن أمسك بى أحد مساعديه وما زال بى حتى اوقفنى فيه .

ولقد استكثرت على نفسى أن أقف فى هذا المكان ، فما هناك فى رأيى أحد يجوز له أن يقف فيه : يجب أن يبقى هذا

---

(١) أمر صلاة رسول الله فى جوف الكعبة موضوع خلاف بين المسلمين القدماء ، فمنهم من أثبته ومنهم من نفاه . ولذلك اختلفوا فى جواز صلاتنا فيها .

المكان بعيدا عن متناول الناس، فلا يكون لهم منه إلا مشاهدته، وما يجوز فى نظرى أن يقف أحد فى المكان الذى وقف فيه رسول الله ، فما فى الدنيا إنسان له ما كان لهذا النبى الامين حتى يقف موقف سيد الخلق الذى أنزل عليه القرآن . وما فى العالم كائن نال شرف الوحى الذى نزل على قلبه من الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين .

وما كان لأحد أدبه وخلقه وعبادته وشرفه وعظمته وزهده فقد زهد فى ذهب الدنيا ولو أراده لكان له ما يشاء. أفيجوز أن يقف أحد موقفه ؟ . لذلك فإنى إذ نويت الصلاة وسجدت السجدة الأولى خطر لى ألا أرفع رأسى عن هذا المكان المقدس ! إنها حجرة مرفوعة على عمد ، ولكن ليس فى الدنيا حجرة ما تضارعها قدسية ومهابة وجلالا .

هذه هى الكعبة التى قيل إنها بنيت عشر مرات كان أولها بناء الملائكة ، وهذا هو البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وبه مقام إبراهيم الذى يتخذه الناس مصلى والذى عهد الله سبحانه إلى ابراهيم واسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

« وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر

فأمتعهُ قليلاً ثم اضطرهُ إلى عذابِ النارِ وبئسَ المصيرُ. وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ واسماعيلُ ربنا تقبلْ منا إنك أنت السميعُ العليمُ ».

هذه الكعبة التى تأخذك الرهبة عند ما تقع العين عليها قد بلغت من المنزلة المقدسة والاحترام منذ فجر التاريخ مابلغت ، وأجمع الناس على احترامها على اختلاف أديانهم سواء فى ذلك المسلمون واليهود والنصارى ، وكان من آثار هذا الاحترام أن ظل لها حرم واسع لا يدخله المرء إلا وهو محرم ، ومن دخله كان آمنا . هذا التقديس هو الذى جعل المؤرخين ينسبون أول بنـــاء لها للملائكة ، وهو الذى دعا إلى بنائها عشر مرات على ماقيل ، وهو الذى جعل العرب يدافعون عن هدمها ويناضلون فى هذا السبيل على مختلف العصور كلما فكر واحد فى هدمها ليتحول العرب عن الحج اليها قبل الإسلام أوبعده .

لقد قيل إن الكعبة بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة وبناء آدم ، وبناء أولاده ، وبناء الخليل ، وبناء العمالقة ، وبناء قصى بن كلاب ، وبناء قريش ، وبناء عبدالله بن الزبير ، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفى .

لست أدرى إلى أى سند يستندون فى أن الكعبة قد بناها الملائكة أو آدم أو أبناؤه ، فان الطوفان الذى جرى أيام نوح

عليه السلام أمر واقع . وقد أنذر نوح قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا إلى قوله « مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »

هذا الطوفان الذى هذه آثاره لم يترك مبانى قائمة ، فإذا قال قائل إن الكعبة كانت موجودة من بدء الخليقة فقد يكون قوله منصبا على مبنى آخر غير الكعبة القائمة اليوم ، إذ أنها لا يمكن أن ترجع إلى هذا التاريخ .

لذلك قال التقى الفاسى فى كتابه « شفاء الغرام » إن رواية بناء الملائكة وآدم وشيث ليست صحيحة .

وسواء أصح ذلك الذى قالوه أم لا فإنه لا نزاع فى أن الكعبة التى نطوف اليوم حولها هى البناء الذى أسسه ابراهيم واسماعيل « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » وليس أصدق من القرآن قيلا .

ولا يمكن أن يقال إن هذه الآية الشريفة لا تقطع بأن

البيت عند مارفع ابراهيم وإسماعيل قواعده كان فى دور الإنشاء لأنه لايجوز أن يكون موجودا وما حدث به سوى زيادة أو إصلاح ، فإن رفع القواعد قاطع فى أنه إنشاء وخلقة . يؤيد ذلك ماورد فى القرآن من أن الأرض التى أقيم البيت عليها كانت بواد غير زرع ، وكانت خالية من السكان . ولسنا فى هذا نستنتج فقد قال « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع » ويقطع بعدم وجود أحد قوله « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم »

يؤيد ذلك ما ذكر عن نبع ماء زمزم مما سيرد عنه الكلام فيما بعد .

ودليل آخر على أن ابراهيم واسماعيل هما اللذان أسسا الكعبة ماورد فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وورد عنها أيضا رضى الله عنها أنه قال عليه السلام : لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما خرج منه وألصقته بالأرض وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس ابراهيم ، قيل فذلك الذى حمل ابن الزبير على هدمه . قال يزيد وشهدت ابن الزبير

حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر ، وقد رأيت أساس ابراهيم حجارة كأسنمة الإبل .

هذا كله قاطع فى أن الكعبة من تأسيس ابراهيم واسماعيل .

وقد بلغ من وثوق المؤرخين بهذا التفسير أن قال التقى الفاسى على التحديد « إن ابراهيم كان يبنى وكان اسماعيل ينقل له الحجارة على كتفه . وهذا الرأى إنما بينه القرآن والحديث .

حدث بعد ذلك هدم وبناء وإصلاح قضت به الحوادث من جهة ومرور الأيام من جهة أخرى ، وبلغ من تقديس الكعبة فى النفوس واحـــترامها بين الشعائر أن وضعت لها الزخارف وكسيت جدرانها من الداخل والخارج بأستار من حرير .

هذه الزخارف وهذه الأستار لم يقصد بها - فى نظرى - إلى رفع شأن الكعبة أو جعلها رهبـــبة ، فهذا الرمز الدينى المقدس إنما يزداد عظمة كلما ازداد بساطة ويزداد مهابة كلما ازداد سذاجة ، يدلك على ذلك أن كثيرا من الأماكن ذات الأثر الدينى لا ينقطع عنها الزوار وهى عاطلة من كل زخرف ، جمالها وبهاؤها فى تجردها من كل شىء . هذه الزخارف وهذه الأستار لم تكسب البيت جديدا ، فقد كان محج الأمم

الاسلامية جمعاء قبـــل أن يزخرف ويكسى ، إنما هؤلاء الذين هداهم تفكيرهم إلى زخرفته وكسوته قصدوا إلى صيانته والمحافظة عليه من الزمان يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، فما كان التقديس للاحجار والأستـــار ، فالبيت فى حكمة وضعه وجمال بنائه ملء الدنيا ، وملء العين والبصر ، وملء النفس والروح ، وهو آية لأسمى معنى من معانى التمسك بالعقائد وتقديسها .

تاريخ الكعبة

رجح المؤرخون أن الكعبة إنما أنشأها ابراهيم واسماعيل. ولم يكن لها قبل ذلك وجود. وهم فى ذلك يستندون، على ما أوردنا من الكتاب والحديث، الى أن الناس كانوا قديما يعبدون الكواكب والأوثان، ولم يكونوا يعترفون بألوهية الخالق العظيم، وكانوا يعبدون أشياء معينة معروفة ظاهرة غير محجوبة كالشمس والنجوم والأصنام، يصنعونها ويعبدونها، فلم يكونوا بحاجة إلى بناء بيت يجعلونه رمزاً لعبادة الله الذى جل عن رؤية العيون، والذى قال لموسى إنك « لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى »

ولو أن ابراهيم كان قد وجد أهله يعبدون الله ويرمزون لعظمته ببناء الكعبة لما قال لأبيه آزر « أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . ! »

وقد كان بينه وبين والده عتاب، إذ وجده يصنع الأصنام لقومه يعبدونها . وقد عنى القرآن بذكر الكعبة الشريفة فى عدة مواضع، فلو أنها وجدت قبل آدم أو كانت من صنعه لما اقتصرت آى الذكر الحكيم على ذكر الاصنام فى معبودات آل ابراهيم .

فاهنالك بد من التسليم بأن الكعبة من بناء ابراهيم واسماعيل ولم يسبقهما أحد إلى ذلك .

ولقد اختلف المؤرخون فيما حدث للكعبة بعد ذلك ، فبعضهم يقول إنها بنيت فى عهد العمالقة ، ثم فى عهد جرهم ثم بنيت بعد ذلك فى عهد قريش ذلك البناء الذى حضره وشرفه رسول ﷺ ثم بناها عبد الله بن الزبير ، ثم أجريت بها بعد ذلك اصلاحات متتاليـــة . ويقول بعض المؤرخين ان الكعبة بنيت ثلاث مرات : بناء ابراهيم ، وبناء قريش ، وبناء الزبير .

والحكم فى صحة هذه الروايات يقتضى أولا أن نعلم أن بين ابراهيم وقريش سبعـة عشر قرنا ، لأنه مهما قيل فى فن البناء وعظمته فلا يمكن أن تحتمل الكعبة هذه القرون الطويلة قائمة بلا تغير . هذا فضلا عن أننا لا نعلم عن يقين شيئا عن هذا الفن قبل ابراهيم ، فلقد توالت على بلاد العرب أمم عربية متعاقبة ، منها : العرب البائدة ، ومنهم العمالقة ، وعرب عاد وثمود ، والأنباط ، وأعقبهم القحطانيون رجال الفرات ، ودولة حمير ودولة سبأ . ويقال إن لهؤلاء وأولئك شأنا فى الحضارة ، فقد كانت لأولئك « أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ، وقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، فلما أعرضوا

الله أن كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور أعرضوا فأرسـل الله عليهم سيل العرم فلما دالت دولتهم وتعاقبت بعدها حمير والتبابعة فالاحباش فالفرس انتقلت زعامة العرب من جنوب البلاد إلى شمالها، ومن هذه الدول إلى العرب العدنانية من ذرية ابراهيم واسماعيل، ومن بينهم قبيلة جرهم التى تزوج منها اسماعيل وكثر نسله وانتشر بنجد والحجاز والشام والعراق وبقى منه بمكة آل قريش الذين ضمهم قصى بن كلاب واجتمعوا على بنى خزاعة حتى غلبوهم على أمرهم واستولوا على مكة منهم، وكانوا قد اغتصبوها من ملوك جرهم وتولى قصى بن كلاب أمر مكة وأمر الكعبة، فكانت له رياسة اللواء، ورياسة دار الندوة، وحجابة الكعبة، وسقاية الحاج ورفادته، وظل على هذا الحال وورثه أبناؤه حتى ولى الأمر عبد المطلب والد عبد الله وجد رسول الله.

وهذه اللمحة التاريخية القصيرة تلخص سبعة عشر قرنا بين أيام ابراهيم وأيام رسول الله، تخللها حكم جماعة من الأقوياء وضعوا أيديهم على الكعبة، فإما أن تكون الكعبة قد بنيت بحالة لا تتصورها من المتانة ولم يقم العمالقة وجرهم وقصى بن كلاب من أمرها إلا بإصلاح بسيط إلى أن جاء حكم قريش فبنوها، وإما ان تكون قد بنيت عدة مرات على الأسس

التى وضعها ابراهيم . وسواء أكان هذا أم ذاك فليس هناك ريب فى أن لهؤلاء يدا فى أمر الكعبة ، فلا يعقل أن تبقى سبعة عشر قرنا على بنائها الأول ، ثم ان ابراهيم واسماعيل لم يكونا بنائين متمكنين فى فن البناء ، فلا مراء أن بناءهما يكون قصير العمر ، ولو أن غيرهما هو الذى بناها ، أو لو أن أحدا من رجال الفن قد شاركهما فى بنائها أو لو أن أمر الفن فى أيامهما كان ذا بال لأمكن ادراك مغزى الخلاف بين المؤرخين فى أمر بناء الكعبة خلال هذه السبعة عشر قرنا . أفيسهل أن نصدق أن أصحاب إرم ذات العماد أو من كان لهم فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، أو قصى هازم بنى خزاعة قد مروا جميعا على الكعبة ينظرون إليها شذرا لا يعنون بأمرها وهم يقدسونها ؟!

لقد كان من أهم مفاخر قصى بن كلاب أن كانت له حجابة الكعبة فكيف لا يعنى بأمرها ؟! لذلك أعتقد من مرور الزمان الطويل ، ومن تقديس رجال الحقب هذه للكعبة مع سلطانهم واقتدارهم أنهم لم يمروا عليها ساكوتا مع مالها من قداسة ، وأنها لم تأمن أثر السيول وتقلبات الجو فى تاريخها الطويل .

وقبيل البعث وهن بناء الكعبة بسبب حريق شب فيها

فأتى على أشجارها وأخشابها واجتمعت قريش لبنائها على أن يكون دخولها وقفا عليهم لا يدخلها إلا قرشى . واختصمت قبائل قريش إذ ذاك فيمن يرفع الحجر فيضعه فى موضعه ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم إلا أن أبا أمية بن المغيرة أشار عليهم أن يتهادنوا حتى يحكموا أول داخل ، وما هى إلا برهة حتى دخل عليهم محمد الأمين ، وكان قد اشتهر بهذه الصفة فعرضوا عليه أمرهم فأمر بثوب فأحضر له فوضع فيه الحجر وقال « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه . وقد أحدثت قريش تغييرا فى بناء الكعبة فزادت فى طولها وأنقصت من عرضها ، وهم يعللون ذلك بأن قريشا لما أرادت بناء الكعبة خرج الوليد بن المغيرة يبتاع أخشابا لبنائها فوجد سفينة لتاجر رومى اشتراها منه واستدعاه لبنائها واجتمعوا على ألا يدخلوا فى بناء الكعبة إلا ما كان كسبا حلالا فلم يجتمع لديهم من الكسب الحلال سوى ما بنوا به ، فاضطروا إلى انقاص مساحة الكعبة توفيرا للنفقة التى أعوزتهم .

وجاء ابن الزبير بعد ثمانين عاما فرأى بناء الكعبة قد وهن من نار اتصلت بها فأعاد بناءها بعد أن أضاف اليها ما أخرجته قريش منها وزاد فى طولها ، وبقيت كذلك حتى جاء الحجاج

فهدم ما زاده ابن الزبير وأعاد الكعبة إلى حجمها الذى تركتها عليه قريش .

وحدثت بعد ذلك فى عهود مختلفة تحسينات وزخارف للكعبة ليس من المهم الآن تكرارها فانني أقصد إلى بيان أصل الكعبة وتاريخ بنائها الأول والأخير . أما ماحدث ويحدث بعد ذلك من التحسينات فإنه مستمر على توالى الأيام مطرد مع الرغبة فى تقديسها والمحافظة على بقائها فى كل الاحوال والأزمان .

وهذه هى الكعبة التى يقوم على سدانتها ومفاتيحها بنوشيبة ابن عثمان وارث عثمان بن طلحة ، ولاهم رسول الله عليه السلام حين قال لعثمان « خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم ظالم »

وقد اختلف المسلمون فيما إذا كان رسول الله قد صلى فى جوف الكعبة أم لا ، فقد نسب إلى بلال أنه قال رداً على سائليه إن رسول الله عليه الصلاة والسلام صلى فى جوف الكعبة بين العمودين الأولين ومن خلفه ثلاثة أعمدة ، وروى من جهة أخرى عن أسامة بن زيد وابن عباس أن النبى لم يصل فى الكعبة .

وهذا الخلاف ليس فى واقعة تاريخية يروونها فحسب ،

وانما يراد النظر اليها من حيث تحليل الصلاة فى الكعبة وتحريمها.

وقد رجح المجتهدون أن محمداً صلى بها، وهو المعقول، إذ لا يمكن أن نفهم العلة فى أن يدخل رسول الله الكعبة ولا يصلى بها، والإجماع منعقد على أنها محل تقديس وتعظيم.

والكعبة على تقديسها فيها بعض مواضع لها قداسة خاصة وهى الحجر الاسود، والركن اليمانى، والملتزم. وفى جوفها مكان لا أستطيع أن أعبر عن درجة قداسته، وهو المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأمام الكعبة وحولها آثار أخرى كالحطيم، وحجر اسماعيل وسيرد ذكرها عند الكلام على المسجد الحرام.

لقد أجمعت الامم والشعوب المختلفة على مر الأيام والدهور والحقب على احترام الكعبة حتى أنهم ليقولون إن موضعها قبل أن يرفع قواعدها ابراهيم كان محل احترام، فقد ذكر المسعودى أن موضع الكعبة كان ربوة حمراء وكان العرب يحترمونها. والذين يرجعون عمر الكعبة إلى ما قبل ابراهيم يقول بعضهم إنه كان بمكانها معبد قديم للعمالقة تلاشى أمره قبل وصول ابراهيم إلى تلك الجهة، فلما بناها ابراهيم أخذ اليهود يتعبدون فيها على دينه، وبالغ أعراب النصارى فى احترامها

ووضعوا بها الصور والتماثيل كما وضعوا على سطحها أصنامهم وأوثانهم يعبدونها ويتقربون إلى الله بعبادتها إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بإزالة الأصنام ومحو الصور. وكانت الكعبة أيام الجاهلية معقد آمال الناس من جميع بلاد العالم يحجون اليها فى أشهر معلومات .

وقد ذكر لبيب بك البتانونى فى رحلته الحجازية، أن قبائل العرب كانت تجتمع قبل الحج : أهل الشمال فى بدر ومجنة بمر الظهران على مرحلة من مكة ، وأهل الجنوب فى ذى المجاز على مرحلة من عرفة ، وأهل الشرق فى عكاظ بين قرن المنازل والطائف ، وقد اتخذها العرب سوقا بعد عام الفيل ثم أبطلت اكتفاء بسوقى عرفة ومكة ، وكانت هذه الاسواق بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الأخلاق . وأظنك تتفق معى فى أن العرب كانوا من أسبق الأمم اليها ، بل لقد سبقوا بها الحكومات المتمدينة بقرون عديدة . نعم سبقهم اليونانيون إلى مثل هذا الاجتماع فى الاجتماعات التى كانوا يقيمونها لألعابهم وأخصها تلك التى كانت فى أولمبى فى القرن الثامن قبل المسيح .

وإذن فقد كان العرب من أوائل الدول فى الاجتماع ، بدءوه فى الجاهلية بعكاظ وذى المجاز يحاضرون فيهما ويذاكرون ، وعقبوا بدار الندوة عند الكعبة ، فلما جاء الاسلام كان رسول

الله عليه الصلاة والسلام يذهب الى عكاظ يدعو فيها إلى الاسلام ، وكانت الدعوة إلى المساجد تقريراً لفكرة الجمع والاجتماع بين المسلمين يدعون إلى الهدى ودين الحق ليظهره الله على الدين كله .

وقد بقيت للكعبة مكانتها فى الاسلام بل لعلها زادت ، لأنها تطهرت من الأصنام التى كانت توضع على سطحها والصور التى كانت تعلق بها ، بل من اليقين انها زادت رفعة واحتراما فى نفوس العالم أجمع والمسلمين خاصة فقد صارت قبلة الصلاة لهم جميعا.

لقد بدأ المسلمون يصلون وقبلتهم بيت المقدس ، فجعل الله الكعبة قبلتهم فى السنة الثانية للهجرة ونزلت الآية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

ولعلك اذا توجهت الى المدينة المنورة لترى آثارها فإنك تجد من بينها « مسجد القبلتين » وهو على هضبة مرتفعة على مسافة بضعة كيلو مترات شرقى غربى المدينة ، وهو مكون من قسمين بقسمه الداخلى محراب نحو الكعبة بمكة وفى قسمه الخارجى محراب نحو المسجد الاقصى بالشام ، وهو الذى كان رسول الله يصلى فيه قبل تغيير القبلة ذلك التغيير الذى كان موضع تساؤل اليهود ، فقالوا فيما بينهم : « ماولاهم عن قبلتهم

التى كانوا عليها قل لله المشرقُ والمغربُ فأينما تولوا فثم وجـــهُ الله »

بل الذى لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى أراد أن يجمع القلوب حول الكعبة فجعل الطواف بها فرضا من فروض الحج إلى بيت الله الحرام لتجمع حولها الأرواح والنفوس فترى الناس على اختلاف درجاتهم يطوفون حولها محرمين لا فرق بين غنى وفقير ، وكبير وصغير ، يطوف حولها الملوك كما يطوف الرعايا ، ويطوف الشيوخ كما يطوف الشبان ، والأغنياء مع الفقراء ، والاصحاء مع الضعفاء ، فأنت تجد حولها صورة كاملة ونموذجا حيا للحياة الدنيا بكل مافيها من أحاسيس ووجدانات .

ولولا أن الكعبة بناها ابراهيم ثم جاء محمـــد فاشترك فى بنائها وأزال منها الصور وهدم ماكان فيها من التماثيل وما على سطحها من الأصنام ، لولا أنها احيطت برعاية الأنبياء من بدء انشائها أفكانت تكتسب هذا التقديس وهذا الاحترام الباقى على الزمن ؟ !

لقد اقلق اليهود هذا الاحترام فبذلوا جهودهم فى هدم الكعبة كما حاول بعض الامراء تحويل الناس عنها فما نجحوا ، فهذا تبع بن حسان ملك حمير اليهودى يريد هدمها فيمنعه أصحابه من اليهود عنه فيعدل ، وهذا يهودى آخر يحاول مرة أخرى

ذلك فيمنعه يهود من هدمها وهم حانقون من وجودها ، ولكن هكذا أراد الله حمايتها وبقاءها خالدة التقديس والاحترام سواء أكانت تلك الحماية بالسيف أم بالإلهام، وهذا أبرهة ملك الحبشة استعمر اليمن وبنى فى صنعاء « القليس » ليحج الناس إليها ، ثم اتجه إلى مكة ليهدم الكعبة فأرسل الله إليه طيرا أبابيل ترميه وجنده بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، فهلك جيشه وبقيت الكعبة على روعتها وجلالها .

وهذا أبو طاهر القرمطى بنى فى العراق دارا ليحج الناس إليها وحارب الحجاج القاصدين إلى مكة وقتل الكثيرين منهم ودخل إلى الحرم فاعتدى على من فيه وتقدم إلى الكعبة فاعتدى عليها وخلع من جدارها الحجر الأسود الذى وضعه رسول الله بيده الشريفة وذهب به إلى بلاده وبقى الحجر لديه حتى مات دون أن يستطيع تحويل الناس عن الكعبة ، فاضطر أهله إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه . وكانت غطفان قد بنت حرما قبيل الاسلام ليحج العرب إليه فحاربهم زهير بن جناب ملك العرب حتى قهرهم ، وكل هذا يدل على ما للكعبة فى نفوس الناس من قديم الزمان من احترام ، وزادها تعظيما تكريم رسول الله عليه السلام لها ، وكأنى به وهو يطوف حولها وقد نشر حول أرجائها نورا ساطعا من نوره ، وعظمة من عظمته

وجلالا من جلاله ، وكأنى به وهو داخل من بابها وقد بارك هذا الباب وكسا داخل الكعبة جمالا من جماله ، وطهارة من طهارته ، وهدى من هداه .

وستبقى الكعبة على مر القرون يزداد بها المسلمون تعلقا ما ذكروا موقف النبي فى تشييدها ، وما ذكروا موقف النبي فى مالها من قداسة واحترام .

المسجد الحرام

بنى ابراهيم الكعبة بناء يرتفع تسعة أذرع وطوله ثلاثون وعرضه عشرون ، ولم يكن حوله سوى فضاء واسع لايحده حد ولا يحيط به سياج ، ولا تجاوره دار ولا بناء ، وترك حولها أهله ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ويرزقهم من الثمرات ، ولم يكن حولها إذ ذاك من الناس أحد سواهم .

وإنى لأتخيل اسماعيل وأمه يسكنان فى هذا المكان وحدهما إلى جوار الكعبة ، لست أدرى والليل قد أسدل ستره أى إحساس يدخل نفسيهما وقد طال عليهما الزمن حتى أخذ الناس يفدون عليهما كما أخذت القبائل تقبل على مكة للإقامة بين شعابها .

وإنى كذلك لأتخيل مقامهما ماعسى أن يكون ، وما هيكله وما عسى أن يكون حجمه ، وماذا يحتاجان فى هذا المقام ؟ من المسلم به أنهما كانا خلوا من الثروة فلا أثاث لديهما ، وأنهما لم يقيما بناء غير الكعبة يقيمان فيه .

ولقد كان لتوالى القبائل فى القدوم الى مكة والاقامة فيها أثره فى التبرك بالكعبة كما أسلفنا ، وكانوا يتنافسون فى العبادة

حولها وتقديسها ، وقد بلغ هذا التقديس مبلغا لم يبلغه شيء آخر.

ليس من شك فى أن الناس يحترمون المساجد التى بنيت بعدها ويدخلونها خاشعين لله ويمتنعون عن كل مايخالف الفضيلة وقوة العقيدة حين يدخلونها ، ولكن أى نسبة بين هذا الاحترام واحترام الكعبة ؟ ! إن الكعبة هى أول بيت وضع للناس ، ثم هى بعد ذلك رمز للعقيدة ، ثم هى فوق ذلك الدار التى يجب على كل مسلم أن يزورها ويطوف بها ، ثم هى مع كل ماذكرت رمز اجتماع قلوب المسلمين واتحاد كلمتهم حول الدين وحول القرآن وما فى آياته من هدى ورحمة ، وبيان وحكمة.

لذلك لم يكن ـ على ما اعتقد ـ يشغل هاجر وابنها اسماعيل لا اقامتهما حول الكعبة يعبدان الله ما أمرهما ، ويستلهمانه الهدى والسداد ، والتوفيق والرشاد.

ولم يكن لمرور الزمان قبل قصى بن كلاب من جهة والاسلام بعده من جهة أخرى دخل فى تغيير ماحول الكعبة وان كان قد حدث تدخل فى أمر الكعبة نفسها ، فما كان هناك مسجد وانما كان هناك مصلى « مقام ابراهيم » وما كانت الصلاة على النمط الذى يصلى به المسلمون اليوم ، فهذه الصلاة من وضع الاسلام وحده ، وكانت الصلاة لديهم قاصرة على الطواف حول الكعبة.

فلما غلب قصى بن كلاب بنى خزاعة على أمرهم واستولى على مكة وعلى الكعبة لم يكن حول الكعبة دور ولا مساكن

ولم يكن قصى يرى ضرورة لوجود ذلك الفضاء -حولها ، ماذا يصنع الناس به وهم لايحتاجون لغير الطواف ! ، فدعا أهله للبناء حولها ، وكانوا يرون ان البناء بجوار الكعبة جرأة على قداستها واعتداء على احترامها ، فمن ذا الذى يجرؤ ان يبنى فى فضائها لتكون له حوائط بقربها ؟ لكنه قال لهم بعد ان انتصروا على خزاعة : « إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم » وضرب لهم الأمثال فبنى دار الندوة ثم قسم بقية الفضاء بين قبائل قريش ، فبنى القرشيون دورهم حولها واتخذوا لمنازلهم طرزا تختلف عن طراز الكعبة ، فجعلوها دائرة والكعبة مربعة إجلالا لها عن التشابه ، وجعلوا ارتفاع منازلهم ضئيلا لا يسمو إلى علياء الكعبة ، وجعلوا أبوابهم متجهة نحوها لكى يستمتعوا وهم فى دورهم بمشاهدة عظمتها ومظهرها ، ويتفادون أن يكون بينها وبينهم حجاب ، وظلوا يتلاصقون بفضائها حتى ضاق الفضاء حولها ولم يتركوا منه سوى مايسمح بالطواف للطائفين ، ولم يكن الأمر حتى فجر الاسلام ليدعو الى فضاء فسيح ، فلقد وصل حال المسلمين بعد الهجرة وقبل الفتح أن خافوا من الجهر بالصلاة حول الكعبة ، فقد كان الجهر بها مثارا لاضطهاد خصوم الاسلام ، ولم تنقشع هذه الغمامة حتى عاد رسول الله صلى عليه وسلم من المدينة الى مكة ومنع الهجرة بعدها .

لقد كان العرب قبل الاسلام لا يعنيهم إذن من أمر الفضاء سوى مايسمح بطوافهم أو جلوسهم فى الصباح أو المساء يستظلون بظلال الكعبة ويتحادثون فى أمور دينهم ودنياهم ، فلما بنى قصى دار الندوة خصها بفئة من العرب وبقى العامة يتلاقون حول الكعبة كما كانوا يتلاقون منذ الأيام الاولى.

وجاء الاسلام ووجبت الصلاة وأخذ المشركون يطاردون المسلمين فى صلاتهم ، فعمد هؤلاء إلى الصلاة فى دورهم ، فلما فتح الله للمسلمين وأمر رسول الله بمنع الهجرة بعد الفتح جهروا بصلاتهم حول الكعبة ، ولكن ماعددهم ؟! لقد كان سكان مكة قليلين جدا فى ذلك الوقت ، فإن الكثير من المسلمين كان قد هاجر الى المدينة فى إثر رسول الله ، كما ان كثيرا منهم انضموا إلى لواء الجيش الاسلامى الذى جاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله وسبيل نصرة الدين حتى لقد اندفعوا فى الحرب فى خلافة ابى بكر الصديق رضى الله عنه وجاهدوا الفرس والروم حتى غلبوهم وفتحوا ديارهم ، لذلك لم يشعر المسلمون بحاجة الى توسيع المطاف فى مدى سبعة عشر عاما بعد الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولم يكن هذا المطاف قبل الاسلام يدعى مسجدا فأطلق عليه المسجد الحرام بعد الاسلام ، وقد سمى بهذا الاسم فى مواضع كثيرة من

القرآن الكريم « سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام الى المسجدِ الأقصىَ » « قد نرى تقلبَ وجهك فى السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فولّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ »

هذا المسجد الذى بدأ وهو بضع قصبات لا يجد من يملؤها أو يستر بعضها من المصلين قد غدا الآن حوالى الأربعة الأفدنة فضاء خالصا يتزاحم فيه المصلون حتى لتجد من العسير جدا أن تمر فيه بقدميك ، ولقد يبلغ به الزحام أن تملأ ابوابه حتى ليستحيل عليك ان تمر فيها ، ولقد تقف أوقاتا طويلة حتى تجد منفذا تدخل منه أو تخرج .

ترى ماذا يقول أبو بكر لو صح له الآن أن يشهد هذا المنظر الجليل ؟ بل ماذا يرى فى هؤلاء المتزاحمين وهم لا يبلغون الا قليلا من المسلمين إذا ما هيء له أن يذكر أنهم كانوا فى صدر الإسلام اذا غاب منهم واحد ذكروه ؟ أفيستطيع المرء مهما أوتى من اليقظة وصدق النظر والفراسة أن يتعرف الى قليل أو كثير من هؤلاء الناس ؟ لست أحدثك عن الشمس المحرقة تسلط نارها عليهم أيام الصيف وهم يقيمون الصلاة لا يزجرهم حر ولا برد ، ولا يمنعهم زحام ! انما أحدثك عن أيام الصلاة الأخرى فى الفجر أو فى الظهر أو فى العشاء ، وأحدثك عن أولئك الذين يجعلون المسجد الحرام

سكنا لهم لا يغادرونه ، وعن الجوع الحاشـــدة التى تلقاها كلما دخلت فى أى وقت من نهار او ليل .

ماذا يقول اليـوم أولئك المسلمون الذى عارضوا عمر الخطاب عند ما أراد ضم دورهم الى المسجـــد الحرام وهو يدفع لهم ثمنها من بيت المـال ؟ أفـكانوا يفرحون ويطربون لهذا النصر العظيم فيقدمون دورهم حسبة وقربانا لله تعالى ؟ هذا أغلب ظنى ، فلقد توالى على المسجد الحرام من هبات المسلمين ما جعله أرقى ما يكون بناء ، وأوسع ما يكون فضاء ، وأجمل مايكون نورا وضياء ، وماهؤلاء بأكثر إسلاما من أولئك وإنما لعلهم وقد طلب أمير المؤمنين اليهم دورهم قد أخذتهم العزة وظنوه يريدها عنـــوة فلم يخضعوا له إلا قهرا ، أما الآخرون فقد نزلوا عنها فى سبيل الله وحبا لدينه .

ماذا يقول قصى بن كلاب وقـد زين لقريش أن يبنوا دورهم حول الكعبة لا يتركون حولها إلا مطافا ، فهل لو علم شيئا من حال الكعبة اليوم أفـكان ينصح أهله بالبناء حولها ، وقد كان يتفانى فى نشر دين الله ورفع لوائه ؟ ؟

هذا المسجد الممتد طولا وعرضا ، المربع الاضلاع ، المرتفع الحوائط ذو البواكى والعمد ، الممتلىء بالثريات الكهربائية ، الباهر المظهر ، كان فى صـدر الاسلام صغير الحجم ضئيل

المساحة فلما هاجر النبي وصحبه تركوه كما كان وبقي على حاله إلى أن ولي الخلافة عمر بن الخطاب وكان بالمدينة وأصيبت مكة بالسيل العظيم ، سيل أم نهشل [1] ودخل السيل الى المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم الخليل من موضعه ونقله إلى أسفل مكة ، فلما جف الماء وجد المقام وقد تزحزح فأعيد الى موضعه، وأبلغ الأمر إلى عمر بن الخطاب فهاله الأمر وجاء رضى الله عنه مسرعا إلى مكة المكرمة ، وكان أول ماقام به أن حقق موضع حجر مقام ابراهيم ، وأمر بإعادته الى موضعه واطمأن إلى ذلك .

رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ ذاك أن المسلمين قد زادوا ، وأن المسجد يزدحم بهم وقت الصلاة فلم ير بدا من أن يأمر بالدور التى حوله أن تهدم ويضم مكانها إلى المسجد الحرام ، رأى رضى الله عنه بواسع حكمته أن أمر جموع المسلمين أهم من أمر أفرادها ، وهكذا تعمل الحكومات للجماعات ،فراعى بذلك مصالح الجماعات ومصالح الأفراد ، وأى مصلحة لجموع المسلمين وأفرادهم أهم من مصلحة اجتماعهم فى الصلاة ، فهذا المسجد تنتفع به الجماعات والأفراد على السواء ، وما الجماعة إلا عدد من الأفراد .

---

(١) سمى بسيل أم نهشل لانه اجترف أم نهشل بنت عبيدة ابن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس وماتت فيه فسمى باسمها .

لكن أصحاب الدور قد جزعوا لهدمها وضمها ، وعارضوا فى ذلك مع أنه رضى الله عنه كان يشتريها ويدفع ثمنها ، ولهذا أبوا أن يبيعوا وأن يقبضوا فأمر بها أن تقوّم وتودع أثمانها فى خزانة الكعبة ، ثم أمر بها أن تهدم ويبقى الثمن أمانة لأصحابه من شاء أخذه فسرعان ما أخذوه ، ومما نصحهم به اذ ذاك قوله « لقد نزلتم بفناء الكعبة وبنيتم به دورا وأنتم لا تملكون هذا الفناء ، وما نزلت عليكم الكعبة فى سوحكم وفنائكم » وبنى رضى الله عنه حائطا حول المسجد كان أقصر فى القامة قليلا فكان أول من أحاط المسجد الحرام بالبناء .

وهكذا كان حزم عمر وعزمه أول ارادة وجهت لبناء الحرم المكى ، وهكذا كان عمر حازما فى كل ماقال وكل مافعل .

توالى الاسلام فى الانتشار ، وتوالى المسلمون فى الازدياد ، وتكاثر المصلون فلم يك بد على مرور الايام من زيادة مساحته ، وإلا فكيف يمكن أن يصلى سبعون ألفاً أو يزيدون فى المسجد الذى أمر به أمير المؤمنين عمر فلم يك بد لعثمان بن عفان ثم لعبد الله بن الزبير ثم لعبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد ، ثم لأبى جعفر المنصور ، ثم للخليفة محمد المهدى العباسى ، لم يكن لهؤلاء جميعا بد من توسيعه حتى بلغ الكمال والجلال فى أيام المهدى .

لقد حج الخليفة محمد المهدى العباسى سنة ١٦٤ من الهجرة ووجد الكعبة فى جانب من المسجد ، لا فى وسطه كما هى اليوم فلم يعجبه وضعها وعزم على هدم الدور المجاورة لها من الجانب الآخر لتقع الكعبة فى وسط المسجد ، فأمر بالمهندسين فتشاوروا فيما بينهم وقرروا أن ما اعتزمه غير ممكن ، لأنه يجعل المسجد ليس بمأمن من السيول ، وقالوا « إن وادى مكة به سيول قوية العزم ونخشى إن حولنا الوادى من مكانه ألا يتم لنا ما نريد »

ولكن لمن يقول المهندسون ذلك ؟! إنه رجل آمن بالله وفنى فى هذا الايمان ، ثم هو يبتغى عملا صالحا للمسلمين يعود بالنفع الخالص لدين الله ، ويخلد له ذكرا حسنا عند الناس ، وهو قوى العزم لا تقف العقبات فى طريقه ، فقال لهم لابد لى من توسيع المسجد حتى تكون الكعبة فى وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما فى بيوت المال ، فرضخ المهندسون لأمره ونفذوا عزمه وهدموا ماجاور الكعبة من الدور ، وبلغ ثمن الذراع الواحد منها خمسة وعشرين دينارا ، ولم يقتصر على ذلك ، بل أبدع فى تنسيقه وان كان لم يستمتع بهذا الابداع ، فقد عاجلته المنية وتم فى عهد ابنه موسى الهادى ، وهكذا كانت ثمرة زيارة المهدى كثمرة الزيارات التى سبقتها جميعا ، وكانت جهود المهندسين الذين نفذوا مشيئته أزخر الجهود نفعا .

ماذا بالمسجد الحرام

لست معتزما أن أوسع شرح محتويات المسجد الحرام ، فلو أنى فعلت ذلك لملأت مجلدا ضخما ليس لدى من الوقت ما يكفى لإعداده ، وقد سبق ان قلت إنه ليس من المهم إحصاء المصابيح التى يتألق نورها ليلا فى ارجائه الواسعة ، ولا إحصاء قطع البلاط التى رصف بها ، وانما أضع تحت بصرك لمحة ترسم فى خيال المطلع صورة يدرك منها مالابد أن يلاقيه من هيبة عند مايصل الى هذه الديار المقـــدسة ، وما عسى أن يشاهده من جلال هذا المسجد العتيق ، ولكنى لن أترك القارىء خالى الذهن من محتويات هذا الحرم بعد ان تحدثت طويلا عنه وعن تاريخه ، وعن الكعبة التى تتوسطه خصوصا أن بالمسجد أشياء لها عظمتها ولها من التاريخ والشهرة ما يدعو إلى الاطناب فيها والتنويه بها .

واذن فلا بد أن أضع أمام الأنظار مساحة المسجد الحرام الذى بدأ صغيرا ، واستمر ينمو على الأيام حتى بلغت مساحته الآن أربعة أفدنة وربع تقريبا ، وليس هناك بد من أن أرسم لك صورة عامة للمسجد وما صار اليه ، ومن أن أتحدث عن مقام ابراهيم صاحب هـــذا المؤسس العظيم الذى جمع حوله

ملايين من المسلمين بعد الاسلام وغير المسلمين قبله ، ولا بد أن أتحدث عن زمزم تلك العين الجارية التى تسقى آلاف الناس فى كل عام منذ زمان طويل ، وملأت شهرتها الآفاق .

وسأتحدث لك عن دار الندوة وعن مقامات الأئمة وعن الحطيم ، وعن الإضاءة فى الحرم ، وعن منابره ، وسأجعل من نفسى رساما يصور هذا البناء الجليل ، وسأقصد فى القول ، وسأجمل فى البيان ، وسأقتصر فى الذكر على رسم صورة تعرف منها أن الحرم يضاء بالكهرباء ، ولن أضيق بذكر مسدى هذا الفضل . وستعرف منى أن للحرم ممار تحت بواك مرصوفة بالبلاط ولكنك لا تنتظر منى أن أدخل فى تفصيل هندسى أو أضيع وقتك فى وصف الوضع الفنى للبناء ، ولا تنتظر منى كذلك أن أذكر لك عدد أعمدة الحرم و محاسن أبوابه ، فليس هناك ما يدعو لأن أخوض فى بحث جدلى عن عدد ابواب الحرم ، وهل اسميها أبوابا أو نوافذ ، ويكفى أن تعرف أن للحرم ستة وعشرين بابا ولبعض الأبواب أكثر من فتحة ، كما أن لبعضها ثلاث فتحات ، ولبعضها خمس فتحات ، وقد بلغت الفتحات جميعا سبعا وأربعين .

ليس يفيدك كثيرا أن تعرف عدد أبواب الحرم ، ولكنك ستدرك بداهة أنها كثيرة ، فإن مسجدا مساحته أربعة افدنة

وربع متصل بعدة شوارع لا مناص من أن تكون له عدة ابواب . على أن أكثر هذه الابواب شهرة هو ابواب : السلام ، وباب العمرة ، وباب ابراهيم ، وباب على .

وباب السلام هو الباب الذى تدخل منه الى الحرم أول ما تدخله عندما تعترم الطواف ، وهو باب الحرم الذى تدخل منه للتحية والسلام ، وهو معروف ايضا بباب بنى شيبة ، وكان قديما يطلق عليه باب بنى عبد شمس .

أما باب النبى فهو الباب الذى كان يخرج منه عليه السلام الى منزل زوجته خديجة رضى الله عنها .

وقد سبق ان قدمت أن المسجد الحرام مربع الشكل تقريبا محاط من الداخل بأعمدة وبواك ، مسقوف الجوانب ، له وسط « صحن » واسع الأرجاء لا سقف له ، فهذا البناء الجميل ممتلىء بهذه الابواب فى جميع جوانبه ، وهذه الابواب تزدحم ازدحاما لا نظير له فى أوقات الصلاة ، ولقد اعتدت اثناء إقامتى بمكة ان أدخل من باب العمرة لقربها الى منزلى وأخرج منه أو من أحد الابواب المقابلة للتكية المصرية حيث كنت أقضى فيها اكثر الوقت مابين المغرب والعشاء ، فما كنت أشق لنفسى طريقا إلا بشق النفس ، وما كنت أصل الى الطريق الا بعد وقت

طويل ، ولقد تأخرت قليلا فى يوم من الأيام وقت صلاة الظهر ، ثم توجهت الى باب العمرة وكانت الصلاة على وشك القيام فاستحال على الدخول ، واضطررت الى الوقوف بالباب حتى انتهى الناس من صلاتهم وبدءوا ينصرفون فدفعت بنفسى بين أفواجهم حتى دخلت بمجهود عنيف بعد الظهر بنصف ساعة

هذه أمم حاشدة وافدة من كل صوب من أنحاء المعمورة يحجون بيت الله ، فهم متزاحمـــون باذلو النفوس فى اغتنام الفرصة لقضاء كل أوقاتهم فى العبادة ، وهم يرون ان هذه العبادة لا تكون إلا بالبقاء فى الحرم المقدس طوال الاوقات والواقع أنه ليس أشهى للمقيم فى مكة من قضاء وقته كله فى المسجد الحرام ، ولولا طبيعة الحياة التى تستلزم الطعام والنوم والتريض والزيارة لما غادر أحد من الحجيج الحرم لحظة واحدة .

إن بناء الحرم جميل مزخرف ، نظيف متسع الأرجاء ساطع الضياء ذو جمال وبهاء ، ثم هو قبل ذلك بيت الله وسياج الكعبة وهو أرض زمزم ، وأول مقام لإبراهيم ، وقد كان لترك وسطه دون سقف حكمة بالغة جعلت من هوائه نسيما عليلا ينعش النفوس فى أوقات الحر الشديد . وما كان يمكن أن يغطى هـذا المسجد بأى سقف وإلا لاختنقت فيه أرواح آلاف الداخلين

مقام ابراهيم - هو آية بينة من آيات الله فى الأرض، قال تعالى « إن أولَ بيتٍ وضعَ للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمينَ فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ ابراهيم » وقال أيضا « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وهو أول ما أسس من منشآت المسجد الحرام وهو الحجر الذى يصلى عنده الأئمة، وهو الذى أقامه ابراهيم عليه السلام عند بناء البيت، والظاهر أن المقصود من الآية الشريفة هو المصلى وليس الحجر، لأن الحجر بطبيعة حاله لا يتسع لإقامة الصلاة عليه، فقد صلى عليه الصلاة والسلام خلف المقام فكان المقام بينه وبين البيت، وربما كان الحجر المعروف إلى الآن بمقام ابراهيم موضوعا فى مكان قيامه علامة عليه.

لقد اختلف المفسرون فى تحديد مقام ابراهيم الذى ورد ذكره فى القرآن الشريف، فقال بعضهم إنه يشمل مناسك الحج وخصصه بعضهم بالحجر الذى قام عليه ابراهيم وقت بناء الكعبة، وقال آخرون إنما هو مكان صلاة النبى عليه الصلاة والسلام خلف الحجر، وفى رأينا أن هذا أصح، لأنه ليس هناك ما يسند أولئك الذين قالوا بأن المقام هو الحجر كله كما أن قصر المقام على الحجر يجعل من المتعذر تنفيذ الأمر الكريم باتخاذه مصلى، لأنه كما قلنا صغير الحجم.

إن هذا المقام هو من أبرز ما فى الحرم من الآثار ، وهو طبعاً ليس محل مقارنة مع آثار أخرى إذا استثنينا البيت العتيق « الكعبة نفسها » ذلك لأن أقدم الآثار عهدا هو أقدم من الكعبة نفسها . أليس قد قام عليه ابراهيم عند بناء الكعبة ؟ ثم هو من الآثار التى أبقى الله عليها وحفظها من العدوان والحدثان كما حفظ الحجر الأسود ، وعلى الرغم من أن السيول قد أحاطت به ونقلته من مكانه فإنه قد أعيد إليه . بل قد أعيد فى مكانه الأول ، ولا يزال ماثلا فى أذهاننا ما حدث به الأزرمى من أنه لما طغى سيل أم نهشل على الكعبة وأخذ المقام وأبعده عن مكانه ووصل الخبر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسرع إلى مكة وأعاده إلى مكانه بعد أن استوثق منه .

والمقام موجود تحت قبة عالية يرتفع على أربعة أعمدة دقيقة من الحجارة ، بها أربعة نوافذ من الحديد مدخلها من الجهة الشرقية ، ويقع خلفه المصلى ، وهى مزخرفة من باطنها بلون ذهبى جميل .

زمزم — مياه زمزم معروفة ولها شهرة واسعة ، قيل فيها إنها مياه معدنية صالحة للشرب ، وقيل إنها فى حاجة إلى اجراءات صحية تجعلها صالحة للاستشفاء ، ومع ذلك فإن حالتها الحاضرة

موضع ثقة جميع المسلمين وتقديسهم ، وموضع آمال المرضى منهم ، فهى مباركة للأصحاء شافية للمرضى . وقد بلغ من تقديس المسلمين لها أن جعلوها مشروبهم طوال وجودهم بمكة ، بل إنهم تارة يشربونها بدون ظمأ لمجرد إزالة الأمراض والآلام وهم يسعون كل السعى للاستحمام بها كلما استطاعوا ، والتوضؤ بها ما أمكنهم ، وهم لا يعتقدون أن بها مواد معدنية شافية ، بل يشربونها لأنها مباركة . أليست قد نبعت لإرواء ظمأ اسماعيل واسماعيل نبى وابن نبى ، فكيف لا تكون مباركة . ولذلك يهتم الحجاج جميعا بحملها إلى بلادهم عند عودتهم يقدمونها لذوى قرباهم والمخلصين من أصحابهم .

لست أدرى ماذا تقول عنى ايها القارىء إذا عرفت انى اقدر كثيرا معتقد هؤلاء المسلمين فى شأن زمزم والتبرك بمائها . ولعلهم معى يقدرون تقديسها هذا التقدير لما اكتنف وجودها من ظروف هى مقدسة فى ذاتها .

لقد قدمنا عند الحديث عن انشاء الكعبة أن ابراهيم عليه السلام ذهب باسماعيل ووالدته إلى مكانها واسماعيل رضيع وتركهما وانصرف ، فقفت أم اسماعيل فى أثره تقول له « يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شىء ؟ فلم يلتفت اليها ولم يرد عليها ، فسألته : هل الله

جل جلاله أمرك بهذا ؟ فقال نعم، ثم استمر فى طريقه إلى أن اختفى عن نظرها وقال « ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . . » وكان مع زوجته بعض ماء ظلت تشرب منه حتى نفد وظمىء اسماعيل وبلغ به الظمأ مبلغا آلمها وآلم عواطفها وهى أم أمام وحيدها ، فانطلقت تبحث عن نبع ماء أو انسان لديه ماء ، وكانت فى نفس الوقت تفر من النظر إلى وحيدها وهو يتلوى من الظمأ فى وقت لاحول لها فيه ولا قوة ، ثم أخذت تتردد بين جبـــلى الصفا والمروة حتى قطعت ما بينهما سبع مرات ، وقيل إن هذا هو السبب فى السعى بين الصفا والمروة حتى انبعث نبع زمزم وسقت ابنها منه .

وهنا أروى لك قصة جميلة عن زمزم كتبها « حسين باسلامه » فى كتابه « عمارة المسجد الحرام » قال :

لما وقفت ام اسماعيل عـلى الصفا ثم هبطت منه حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعيها ثم سعت سعى الانسان المجهد حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، وفعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وســـلم فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبة أو مال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه

وتخفيه بيدها هكذا أى تجمعه ، وفى حديث على فجعلت تحبس الماء ، فقال دعيه فإنها رواء وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس قال النبى عليه السلام « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت » أو قال « لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا » قال شربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان هذا بيت الله لهذا الغلام والله لا يضيع اهله . . . الخ

وليس غريبا أن نقرر أن زمزم هى الأصل فى قيام مكة فى هذا المكان ، فما كان يمكن ان يسكن احد فيه دون ماء . وكان أول من جاور اسماعيل هناك آل جرهم ، فلقد مر منهم جماعة فشاهدو الماء فاستأذنوا أم اسماعيل فى أن ينزلوا الى جوارها فأذنت لهم ، وهكذا بدأ عمران منطقة مكة .

وزمزم عين لا تجف ، وان كانت قد ردمت ردحا من الزمن وتهدم بئرها الا انها اعيدت لمكانتها الاولى ، وهى معين لا ينضب ، تحلو كلما زاد أخذ الماء منها ، وهذا أمر مشاهد فى ذاته ، فإن استعمال الماء يكون قليلا فى أيام السنة الى أن يبدأ موسم الحج فيزيد طلب الماء ، ولهذا نجد ماءها يحلو يوما بعد يوم فى أيام الحج .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن هناك مشروعا على

وشك النفاذ يقوم عـــلى ترشيح مياه زمزم بطريقة صحية لاستعمالها للاستشفاء كغيرها من العيون المعدنية فى البـلاد الغربية نظرا لما اتضح من صلاحيتها لهذا الغرض .

قلت آنفا انى أعتقد مع المعتقدين فى قـــدسية ماء زمزم بشكلها الحالى ، فهى ميـاه نبعت لنبى ابن نبى ، ومع ذلك فقد ورد فى البخارى من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال « ماكان لى طعام الا ماء زمزم اجتزىء به ثلاثين ما بين يوم وليـلة فسمنت حتى تـكسرت على بطنى » وجاء فى صحيح مسلم من حديث أبى ذر « إنه طعام طعم » وقال ابن عباس « خير ما على وجه الارض ماء زمزم »

وقد ورد فى الرحلة الحجازية للمرحوم لبيب البتانونى بك أن هذه المياه فيها فوائدمعدنية ، وأن قليلها يفيد وكثيرها يضر وهو يرى أن خدمة العين يبالغون فى فوائدها ترغيبا للحجاج فى تعاطيه . وقد تعرض لنقد البتانونى بك فى رأيه الاستاذ حسين باسلامة نقدا شديدا ، ولـكنى لا أرى لهذا النقد الشديد محلا ، لأن البتانونى بك لم يبعد زمزم عن الفائدة .

وعلى أى حال ليس من شك فى أن زمزم من العيون الجارية العظيمة الفائدة ، الذائعة الصيت فى أنحاء العالم .

مقامات الأئمة ـ لكل إمام من أئمة المسلمين الاربعة « أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل » مقام بالحرم الشريف يصلى فيه تابعوه ، وأحسن تسمية لهذه المقامات « المواقف » حتى لا يظن أحد أنها مما أطلق عليه عرفا المقام الذى يدفن تحته ولى كريم ، وهذه المقامات أو المواقف أو الاماكن قديمة العهد من بدء الاسلام تقريبا .

محتويات أخرى للمسجد الحرام ـ يحتوى المسجد الحرام بعدما ذكرنا على « الحطيم » وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة بينه وبين جدار الكعبة أرض معروفة بالحجر ، مرصوفة بالرخام ، وهم يطلقون الحطيم على هذا الجدار المحيط بالحجر ، ويطلقونه على المكان المحصور بين الكعبة والحجر من جهة ، ومقام ابراهيم وزمزم من جهة أخرى .

والحجر هو المكان الخالى المحصور بهذا الجدار ، وبعض هذا الخلاء قد تركه ابراهيم عليه السلام إلى جانب البيت وبعضه كان من المساحة التى بنيت عليها الكعبة ، فلما أعاد آل قريش بناءها تركوا منها هذا الجزء ، وكان الزبير قد أعاد بناءه ولكن الحجاج أعاد إخراجه ، على ما قدمنا .

ويوجد بين باب الكعبة والركن العراقى ثغرة يطلقون عليها اسم « المعجنة » يقولون إنها هى التى كان يعد فيها ابراهيم ملاط البناء .

لقد أطلنا ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الحرم كان له منبر فاخر يقوم فى وسطه تحت العراء، وله عدة منارات فى جوانبه.

وهذا المنبر طبعا هو الذى يقف عليه الامام حين يخطب الجمعة، ولست بحاجة إلى أن أتحدث عن بهاء هذا المسجد العظيم ومظهر المسلمين حين اجتماعهم فيه، ومظهرهم وهم داخلون اليه من كل باب، ومظهرهم وهم منصرفون إلى دورهم عقب تعبدهم الطويل كل ليلة، والأضواء تتألق فى سمائه وفى جوانبه فذلك شىء يجل عن الوصف.

سنصلى كثيرا وسنصلى الجمعة فى الحرم، وسنخرج الآن للسعى بين الصفا والمروة.

بين الصفا والمروة

الصلاة فى الحرم

لقد انتهينا من كل شىء داخل الحرم أول وصولنا إلى مكة كما سبق أن قدمنا ، وكان علينا أن نسعى بين الصفا والمروة ، ولقد كان الجهد آخذا منا أبلغ مأخذ ، فقال أحد رفاقنا مازحا : ماعلينا لو ذهبنا للراحة ، فما السعى بين الصفا والمروة إلا سنة يمكن تأجيلها ، فنظرنا اليه شزرا وقلنا : ما فى العبادة من ممازحة . إننا قد أتينا هنا لنقوم بالواجب والسنة معا ، ومن ذا الذى يصبر على ترك شعيرة كهذه ولوكانت سنة مادام فى قلبه حب مولع ، وفى نفسه رغبة اكيدة فى الاستزادة من شعائر الدين : «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيتَ أو اعتمرَ فلا جناحَ عليه أنْ يطوَّف بهما ومن تطوعَ خيراً فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليمٌ »

قصدنا إلى باب الصفا ، وخرجنا منه إلى الصفا ، وصعدنا اليه على درجات مبنية منتظمة ، وجعلنا البيت العتيق قبالتنا وهللنا وكبرنا ودعونا ثم نزلنا قاصدين المروة ، حتى إذا وصلنا إلى العمود

الأخضر هرولنا إلى أن وصلنا إلى العمود الثانى فأعدنا سعينا سيرته الأولى حتى وصلنا إلى المروة ، وفعلنا كما فعلنا عند الصفا ونحن فيما بينهما لا ينقطع لنا دعاء .

وهكذا حتى أتممنا سبعة أشواط ، ووصلنا إلى صالون حلاق فحلق لنا بعض شعر رأسنا وتحللنا من الإحرام ، وأصبح حلالاً لنا كل ما كان محرما .

الله اكبر. لقد قطعنا مرحلة طويلة من مراحل الحج، وسنصبح فى مكة كأهلها نقيم بينهم حيث ولد رسول الله عليه السلام .

كان حديثنا أثناء انصرافنا إلى منازلنا مع صاحبنا الذى قال إن السعى بين الصفا والمروة سنة لا وجوب فيها ، فكان حديثا هادئا ، إذ لا جدال فى الحج .

قال معتذرا : أنا قلت ما قلته مازحا وإلا فأى قلب يطاوع صاحبه على السكوت عن السعى حتى ولو كان مجرد استحباب ، وما دمتم تريدون المناقشة فى هـــذا فتعالوا نتناسى حماسة العواطف وما أنتم مدفوعون له من حب العبادة والتفانى فى الاستزادة منهـــا :

ألم يقل الله تعالى « فمن حجَّ البيت أو اعتمرَ فلا جناحَ عليهِ أن يطوّف بهما ، ومن تطوعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ » .

أفليس معنى هذه الآية الشريفة أن السعى سنة حض الله سبحانه وتعالى على ادائها ولم يأمر جل جلاله بالتزامها ؟

يرى الإمامان مالك والشافعى أن السعى واجب، ومن لم يسع كانت عليه الفدية . ويرى غيرهما أن السعى تطوع وليس على تاركه من وزر ولا فدية . والحقيقة أن المناقشة فى أمر السعى بين الصفا والمروة لا محل لها ، اذ هى مناقشة نظرية ، فليس هناك من يسافر لأداء فريضة الحج محتملا صعاب السفر وكثير النفقة ويذهب إلى المسجد الحرام مأخوذا بجلاله وجماله ثم يفكر بعد ذلك فى أن يسعى أولا يسعى؟ إن أمر التخلف عن السعى لا يدور بخلد أحد .

ولو لم يكن السعى فرضا بالنص لأصبح فرضا بالإجماع فما من مسلم يصل إلى مكة إلا يسعى بين الصفا والمروة من جموع الملايين الذين حجوا فى مختلف السنين . لذلك لا أجد جدوى لهذا البحث ، بل لا أجد مسوغا له .

لقد كان فى شـــارع المسعى آلاف من الناس يتزاحمون بينهم العجوز والمريض والرجال والنساء فما تذمر أحد من الزحام ولا حاول التخلف بسببه .

بل إن الذين اشتد بهم المرض قد استأجروا من يحملهم على أكتافه يطوف بهم السبعة الاشواط ومن كان ذا ميسرة سعى أشواطه راكبا سيارة أو دابة ، وما فكر واحد فى هذه

المناقشة البيزنطية ولا حاول أن ينتحل الأعذار. إن العبادة فى مكة مبعثها حالة روحية لا قبل لأحد على دفعها . بل إن الكثيرين ليؤدون الشعيرة عدة مرات ، فمن ذا الذى بلغ به صغار العقل حدا يبحث فيه عن وجوب السعى أو جوازه ؟

وإذا قيل إن هناك أناسا يرغبون فى الحج ويعجزون عن السعى لمرض ثقيل مثلا فما شأننا بهؤلاء وهم غير مكلفين بالحج لأن حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا.

فمن وجب عليه الحج كان قادرا ، ومن كان قادرا فليس له أن يناقش فى هذا الموضوع ، لذلك تجدنى لا أستسيغ مخالفة رأى مالك والشافعى ، ولا أتمشى مع آراء الآخرين ، واعتقد أن الآية لا تفسر إلا على هذا المعنى ، وأما ظاهر لفظها فهو كغيره من النصوص العديدة التى هى الطابع المعروف عن أدب القرآن الذى يتجلى فيه عطف المولى القدير على عباده .

الصفا والمروة مكانان مرتفعان أو لهما فى شارع المسعى وثانيهما فى آخره يطلق عليهما فى العرف «جبلان» والواقع أن كلا منهما مكان مرتفع عن سطح الأرض بأكثر من متر ونصف مستطيل الشكل تقريبا مساحته قرابة عشرين مترا مربعا تقريبا ، يصل المرء اليه على درج من درجات السلالم المنزلية ، ويفصل بينهما شارع مرصوف طوله أربعمائة متر تقريبا ولا شك أنك تشعر برهبة المكان حين تصعد اليه وحين تنزل منه .

والشارع الموصل بينهما جميل نظيف مرصوف مسقوف لا مشقة فى قطعه سبعة أشواط تبلغ ثلاثة كيلو مترات تقريبا إلا أن الحكومة تركته سوقا تجارية ممتلئة بالحوانيت على الجانبين وتركت فيه ممرا للسيارات .

هذا الشارع له قدسيته، وكان يجب أن يكون خاليا من التجارة استكمالا لوقاره وإفساحا للآلاف الذين يرتادونه كل يوم . وكان يجب ألا تمر به السيارات حتى لا يتعطل السير فيه أثناء السعى وحتى لا يتعرض المارة للخطر وهم مشغولون بالعبادة ، وهـــو للعبادة فيجب أن يبقى للعبادة ، ولا شىء غير العبادة أما أن يترك هكذا يمر فيه الساعون من جانب ويجلس التجار به من جانب ويمر الشارون بين هذا وذاك فأمر يجعل السعى فيه شبه عسير ولولا شغف الناس بالسعى والعبادة واندفاعهم اليه عن رغبة لكان المرور معطلا لهذا العمل العظيم .

لقد ورد فى بعض المراجع ان الصفا مرتفع عن الأرض ثمانى درجات، وفى كتاب ابراهيم رفقى باشا أنه مرتفع عن الأرض أربع درجات ، وفى غيره أنه مرتفع عن الأرض درجتين فقط . والعـــلة فى ذلك ظاهرة فإن ردم الشارع قديما ورصفه قريبا قد رفعا من مستواه وانقصا من عدد درجاته وذلك بالطبع ما هون على الحجاج السعى ، ولعل ارتفاعه القديم هو الذى جعل اسمه عرفا « الجبل » لعلوه فيما مضى .

بهذا تذوقنا العبادة والخضوع، وزدنا إيمانا وخنوعا لله مالك الملك ذى الجلال .

ما أظن شخصا يذهب إلى الحجاز ويستكمل هذه الشعائر ويفعل ما يفعله الناس جميعا على اختلاف درجاتهم وأعمارهم ويذكر ان الناس عند الله سواء ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وان كثيرا ممن نراهم حفاة عراة خير عند الله آلاف المرات من ذوى المال واليسار ، إلا صفت نفسه وهذبت واستضاءت بنور الإيمان واليقين .

ورب فقير معدم هو عند الله أعلى مقاما من غنى موسر يجمع المال ويكنزه أو يحرزه لا ليجعل منه حظا للفقراء والمساكين ، وانما ليجعل منه سبيلا للتسلط عليهم والتنكيل بهم والتعالى عليهم واذلالهم بغير حق .

لقد وصلنا إلى منزلنا بعد صلاة الفجر ، فلنسترح قليلا ، فقد جاهدنا جهادا متصلا منذ صبيحة هذا اليوم إلى صبيحة اليوم التالى وقد اتممنا واجبنا وما أسعد المرء إذا آوى إلى مضجعه وهو يشعر أنه قد أدى واجبه فى اليوم الذى فات ، فخير أمنية للمرء فى حياته أن يعيش وقد عرف التزاماته فأداها ، وفرائضه فقام بها ، ونام وهو معتقد أن الله راض عنه ، وأن عباد الله ليس لهم عليه موجدة

لقد كان وقتنا بمكة ضيقا قبل الحج ، فقد وصلناها قبله

بعشرة أيام ، وكان علينا أن نؤدى مناسكنا ، وأن ندرس أصول هذه المناسك ، وأن نؤدى واجبات أخرى دينية وغير دينية ثم إن الوقت فى ذاته كان موقوتا بمواعيد الصلاة من الفجر إلى العشاء . لذلك عجلنا بما لم يكن من دراسته بد ، واستمهلنا أنفسنا إلى أن نعود من منى بعد العيد لندرس ما بقى علينا من عادات الناس هناك ومعاملاتهم ، ولم يكن لدينا مع الأسف سوى جمعة واحدة نصليها بالحرم المقدس .

وقد شاهدنا الزحام بل الالتحام فى أوقات الصلاة الأخرى فبادرنا بالذهاب إلى المسجد فى الساعة العاشرة من صباح الجمعة ومع ذلك وجدنا اكتظاظا يحول دون مرورنا ، ولولا أننا كنا قد اتفقنا مع حارس مقام مالك فى اليوم السابق على حجز أماكننا لما استطعنا الجلوس مطلقا خصوصاً أن ما ليس له سقف من ساحة الحرم كان تحت تأثير أشعة شمس محرقة مع أننا كنا فى الخامس من شهر فبراير فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السماء ، وقد قضينا أعمارنا نجلس فى المكاتب تحت السقوف ، فلم نعد نحتمل الشمس فى اشتداد سطوعها ، لأن حرارتها أقوى مما تعودناه منذ الصغر ، ولا نستطيع التمتع بنور النجوم فى بهائها ، لأنها تسطع فى الليل حين نكون منكبين على أوراقنا من جهة ، وحين يكون هذا الجو الصافى رطبا وصعبا علينا

احتماله ، وهذا هو ما جنته علينا حياة المكاتب . فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السقف الدائر بالحرم ، لأنه مشغول بالسيدات وقد حسبنا حسابه واشترينا الأماكن من حارسها فحجزها وجلسنا مسرورين .

كان الوقت واسعا ، وكان الظهر بعيدا ، وفى مقام مالك ككل مقام آخر عدد لا حصر له من المصاحف الشريفة وقفها أهل الخير على الحجاج ، فجلسنا وفى يد كل منا مصحف يتلو منه آى الذكر الحكيم . فما أروع ذلك وما أعظمه .

ومع أن الزحام قد بلغ أشده فلا تزال الوفود تترى وقد جلس الناس على أبواب المسجد عندما عجزوا عن دخوله ، وحضر قبيل الظهر أستاذنا الكبير الهلباوى بك فى عباءة من حرير « روب » ولما لم يجد مكاناً خاليا أخلينا له مكانا وجلس كل منا القرفصاء . وبعد قليل من حضوره أذن الظهر .

إن صوت المكيين فى الحديث رقيق جميل ، وصوت المؤذنين منهم أجمل . ولست أحكم على ذلك بصوت المؤذن وحده ، فقد كان المبلغون مثله فى صوته رقة وجمالا ، ولست أذكر أننى سمعت فى مصر مؤذنا أكثر عذوبة ولا أكثر تجويدا للآذان من مؤذن مكة .

فأنت اذ تسمع الآذان من المؤذن لا تشك أنه مدرك ادراكا تاما انه واقف بين يدى الله .

الله أكبر الله أكبر يقولها بأسلوب يصل إلى قلبك ويجلى لك أن الله أكبر حقا فلا هى عبارة محفوظة يقولها أو آذان يرتله ، وإنما هو يعتقد ويشعر أن الله أكبر فيقول ذلك وأنت تسمع ان الله أكبر كما تعتقد وتشعر ، فأذانه صادر من قلبه مصوب إلى قلبك،واصل إليه بلا واسطة، أشهد أن لااله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . ان من يسمع هتاف الرجل وهو يرتل هاتين الشهادتين يرى أنه يؤدى الشهادتين حقاً ،بوجدانه وإيمانه، وهكذا حتى أتم أذانه .

وصعد الإمام على المنبر — وكان قريبا منا — وقال السلام عليكم ،فتذكرنا ما قرأناه عن عهد رسول الله وخلفاء رسول الله. وتقدم المؤذن فأعاد الأذان بين يديه ، ثم ألقى الرجل خطبته وأقيمت الصلاة ، وما كان الناس أحرارا يركعون ويسجدن فالواقع أنه لم يكن هناك مكان يسع ركوعهم وسجودهم من شدة الزحام ،فكانت تقع رأس أحد المصلين على ظهر الآخر .

سبعون ألفا من الناس غير أهل مكة والحجاز يصلون فى هذا المكان ، فالمساجد الأخرى بمكة تكاد لا تستعمل ، فالحجاج طبعا لا يعرفون سوى الحرم ، ولا يفكرون فى الصلاة فى غيره ،

لأن الصلاة فيه تعدل صلوات فى مساجد أخرى ، ومن ذا الذى يرضى أن يضيع على نفسه الثواب بالصلاة فى غير الحرم .

ولولا أن للإمام مكانته ، ولولا أن له عبدين يتهادى بينهما حتى يصل إلى مكانه وهما يفسحان له الطريق لوجد عناء فى الوصول إلى مكانه .

ولعلك توافقنى على فائدة العبادة ولذة الخضوع وحكمة الاسلام إذا علمت أن هؤلاء الألوف يتقابلون يوميا خمس مرات والصفاء يزداد بينهم ، والوئام يسود علاقاتهم فما حدث بينهم نفور ولا تزاحم ولا مشاحنة ، وهم جميعا مدفوعون بعامل واحد ، هو عامل التقرب إلى الله الواحد الديان .

مكة المكرمة

ما أظنني حين أتحدث عن مكة إلا متحدثا عن أحب المدن الى الله والى المسلمين من عباد الله .

وما أظن الا أن اسمها يهز مشاعر الناس كما يهز شعورى ويأخذ بمجامع قلوبهم كما هو آخذ بنفسى وقلبى وروحى !

فمكة ليست بلدا مما تستطيع الجغرافيا والتاريخ أن تتحدثا عنه ، فما يتحدث التاريخ إلا عن نشأتها وما جرى عليها من الأحكام والحكام على طول الأيام ، وما تتحدث الجغرافيا الا عن موقعها وتكوينها وطبيعتها ومكانها وما الى ذلك ، ولكن مكة الروحية ، ومكة بلد الكعبة ! ! وتلك الحياة التى لا توجد فى غير مكة ولا يمكن أن تشاهد فى غير مكة ! ! ونفوس المكيين ، ووصف مكة وهى غاصة بالحجاج ؟ ومكة التى تسع عشرات الآلاف من الحجاج فى كل عام ؟ هذه كلها اذا حاولت التحدث عنها عجزت كل العجز عن بلوغ هذه الغاية !

مكة موطن النبي العربي الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق فأضاء العالم ، ونشر رسالته للمسلمين خاصة وللناس كافة .

مكة البلد الأمين حيث ولد رسول الله عليه السلام وحيث نشأ وترعرع ، وحيث نزل عليه الوحى فكان هذا الوحى قرآنا عربيا سمت آدابه عن كل آداب ، واحكامه عن كل أحكام ، ودستوره فوق كل دستور ، وقوته فوق كل قوة فكان فى النفوس سحرا ، وفى الناس عدلا ، وفى القلوب هدى وفى الصدور نورا ، وبقى مسيطرا على العالم منذ نزل وسيبقى هكذا الى الأزل ، فسار المسلمون على تعاليمه واقتبس غير المسلمين هذه التعاليم فجعلوها أسسا لقوانينهم ، وميزانا لأحكامهم وظل صالحا لكل جيل ، موافقا لكل أمة وسيبقى — كما قلت — صالحا لكل عصر ما بقيت الدنيا ومادام الزمان .

مكة بلد الرحمة ، هى أم القرى ، كان أول من هبطها نبى ، وبعث منها آخر نبى ورسول .

وما أظننى حين أتحدث عن مكة سيطلب منى وصف للشوارع والمنازل ، فانها لا تكاد تختلف عن طراز الشوارع والمنازل فى جدة ، وقد قلت ان قيمة مكة ليست فى دورها وشوارعها ، فإذا لم يكن هناك بد من أن أذكر عنها شيئاً فإنى

لذا كر ذلك بعد قليل ، ولكنها على كل حال بين كبيرة يكاد يقرب عرضها من طولها الذى يبلغ نحو الميلين، وشوارعها فى الغالب ضيقة خالية من النظام ، وذلك سببه ضعف الحالة المالية فى البلاد . لكنها مع ذلك بلدة مستقرة هادئة يستتب الامن فيها وتسير فيها احكام الشرع الشريف بكل ما فيها من دقة ، ولذلك تجد بها العدل وتشعر فيها بطمأنينة وأمن لا نظير لهما فى أى بلد آخر .

نشأت مكة فى واد ليس به زرع ولا ماء ، وليس به أيضا أحد من السكان . أنشأها سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام قبل الميلاد بتسعة عشر قرنا ، فهى بذلك من أقدم بلاد العالم عهدا ، لها من العمر أربعة آلاف عام إلا قليلا ، فقد أمر الله تعالى ابراهيم بالهجرة بولده اسماعيل وزوجه ، فهاجر وحط رحاله بها وانشأ بيتا اقاما فيه ، الى آخر ما مر بك فى الفصول السابقة ، ونشأت أم القرى كعبة للقاصدين ، . وقد توالى عليها قبل الاسلام وبعده حكام متعددون ، فقد ولى عليها رسول الله عليه السلام فى العام الثامن من الهجرة عتاب بن أسيد رضى الله عنه الى أن انتقلت الخلافة الى الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين ثم الفاطميين ، وظلت بعد ذلك يتناوبها الحكام حتى تغلب عليها اليمنيون وصارت بين المصريين واليمنيين يحكم فيها من

غلب ، ولما وقعت مصر فى يد الاتراك تبعتها مكة فالحجاز . وهذا وغيره هو سبب تعدد الاصول بمكة ، فالمكيون خليط من العرب والمصريين واليمنيين والهنود والجاويين والاتراك ، وقد ترتب على هذا أن اختلطت الانساب والاخلاق والعادات وفى ذلك يقول المغفور له لبيب البتانونى قوله الحق « لقد كان اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة والمعاشرة مدعاة لأن صار سواد أهل مكة خليطا فى خلقهم وخليطا فى خلقهم ؟ وهذا الذى قاله البتانونى بك منذ ثلاثين عاما تقريبا لا يزال ماثلا الى اليوم . فلا تزال لغتهم مشوهة بما دخل عليها من اختلاط المتكلمين ، ولا تزال أخلاقهم كما رواها ، ولهم عبارات يتحدثون بها غير مألوفة ، بل هى غير دالة فى ذاتها على ما يقصدون اليه من معناها .

فإنك تراهم كما قال قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى ، وعظمة التركى ، واستكانة الجاوى ، وكبرياء الفارسى ، ولين المصرى وصلابة الشركسى ، وسكون الصينى ، وحدة المغربى ، وبساطة الهندوسى ، ومكر اليمنى ، ونشاط السورى ، وكسل الزنجى ، ولون الحبشى ، بل تراهم جمعوا رقة الحضارة وقشف البداوة ، فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك ، اذ هو قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه حتى لكأن طبيعة البداوة قد غلبت فيه

تهذيب الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك . وقد وصل الخلط الى ازيائهم فإنك تراها مجموعة مختلفة من ازياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطان مصرى وجبة شامية الخ .

وهذا الذى قاله البتانونى بك لا يزال منطبقا على الواقع بل إن مادخل على البلاد من المدنية لم يغير كثيرا مما قال . ولست أدرى متى تصبح مظاهر مكة مصقولة كما ينبغى .

ولعلى أكون بما سبق قد وضعت أمام القارىء وصفا قصيرا لمكة على غرار ما كتبه المرحوم محمد باشا صادق . وإنك لتستطيع أن تدرك مدى تقدم البلد اذا علمت ان هذا الوصف وضع منذ نيف وأربعين عاما ولا يزال منطبقا عليها إلا القليل مما استحدث بعد ذلك كقصر الملك ، ودور الوزراء ، ومبنى بنك مصر ، وفندقه الجديد ، ولعل مما جدبها بعض مظاهر المدنية فى أثاثات المنازل والمقاهى ، فإنك لترى مقاعد أنيقة متوسطة فى كثير من الاماكن ، كما أن بعض الدور تضاء بالكهرباء بواسطة مولد خاص . واليك ما قاله صادق باشا فى رحلته :

« وأما مكة شرفها الله تعالى فهى بلدة كبيرة بين جبال صعبة المرور . . . وهواؤها جاف لزيادة حرارتها ، وهو طيب للصحة ، وبها من الجبال المشهورة جبل حراء ، وفيه الغار الذى

كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حين أخرجه الكفار من مكة ، وهو يقع جنوبها بمسافة ساعتين ، وجبل النور شمالها ، وهو أول مهبط لجبريل عليه السلام ، وجبل أبي قبيس بشرقها وبيوتها نحو ٦٥٠٠ وجميعها ذات خمس طبقات من الحجر الاصم ، وبها خلاف الحرم المكى ستة جوامع . والمساجد المشهورة بها هى : مسجد الراية ، والجن ، والإجابة ، والبيعة . وبها قلعتان وثلاث تكايا منها التكية المصرية ، وحمامان وتسعة خانات وست مدارس . . الخ

ومن فواكهها العنب والرمان والموز والبطيخ ، وهى تستورد البرتقال والتفاح .

* * *

هذا مجمل وصف مكة ، وهذا ملخص حال أهلها وأسباب المعيشة فيها

ولقد أقمنا فيها ثمانية عشر يوما كانت من أسعد أيام حياتنا وقضيناها على خير ما كان يجب أن تقضى .

حياتنا بمكة

كنت أحسب أنى سأقضى أيامى بين العبادة ، لأنى لم أسافر إلى مكة للدرس والاستقراء ، بل لأؤدى فرضا واجبا تهيأت ظروف قضائه فكان سفراً لله وفى سبيل الله . على أنى مع ذلك كنت أعددت أوراقا أدون فيها مذكراتى عما تقع عليه عينى أثناء أداء الفريضـــة نفسها ، فلم اعتزم أن أنتقل أى خطوة للدراسة فى ذاتها ، لكننى ما وصلت إلى السويس حتى اندفعت إلى البحث والكتابة بشكل لم أكن أعتقد أنه سيكون ، ولست أدرى ما حفزنى إلى ذلك كله ؟ أهو لأنى قضيت كل حياتى دارسا فلم أعد أستطيع أن أسلو الدراسة ، فلقد قضيت أيامى منذ السادسة من عمرى متنقلا من المكتب إلى المدرسة متدرجاً إلى المحاماة ثم إلى الكتابة والنيابة فلم أسترح يوما واحدا من الدرس والتحصيل ، فأصبح عسيرا على أن أتعطل لحظة عن الكتابة أو القراءة أو كليهما معا ، ولست أستطيع أن أرى جديداً لا أدرسه ، أو حديثاً لا أقرؤه على الرغم من العمل المضنى الذى أزاوله ؟

أم كان الحافز إلى ذلك ان الفرصة التى أتيحت لى بزيارة تلك الأراضى قد لا تتاح مرة أخرى وهى أراض مقدسة تنبعث فى النفس رغبة قوية للتزود من آثارها ، بل كل ما يحيط بها حتى التراب ؟

أم حفزنى شىء من رغبة المرء فى اكتساب رضا الناس واحترامهم وتقديرهم ، وما عسى أن يكون من الحرج لشخص مثلى إذا سئل عن شىء فى الحجاز فلم يعرفه مع أنه قد يكون من اليسير إدراكه ؟

لست أدرى حقيقة ما حملنى على حمل مفكرتى ثم السعى فى البحث والتنقيب وانتهاز الفرص إليهما ، فقد يكون سببا من هذه الأسباب ، وقد تكون هذه الأسباب جميعا . وقد يكون مع هذه الأسباب ما لقيناه فى تلك البلاد من أهلنا ومن أهلها . لذلك قسمنا أوقاتنا وكان للدرس والاستكشاف قسط كبير من هذه الأوقات .

والحياة فى مكة حياة طلية ، لأن مكة بلد عامر بالرجال والأشياء عامر بالجماعات والأفراد ، عامر بالعلماء والمتعلمين ، عامر بالنظام والمنتظمين ، به نظام حكم جميل ، وبه قضاء عادل ، وبه صحافة وجمعيات للإسعاف والطيران وغيرهما ، وبه متاجر وفنادق . وبه ما تحتاج اليه وما تألفه فى أكثر البلاد نظاما .

نعم إن كل الذى بها يعوزه المال، ولكنه مناسب لحاجة البلاد ولماليتها وهو كذلك جميل فى بساطته ، فلن تجد فيها صحيفة كالأهرام أو غيرها من الصحف اليومية المصرية ، ولكنك تجد فيها صحيفة تفى بحاجة البلاد ودرجة اتساعها وثقافتها .

جريدة أم القرى - لقد اطلعت على جريدة أم القرى - وهى الصحيفة الرسمية لحكومة الحجاز - فوجدت فى إحدى صحفها اسمى منشورا بين الحجاج الذين وصلوا إلى مكة ، وأنا رجل أقدر الصحافة أعظم تقدير، وأحب رجالها، فاعتبرت نشر اسمى تحية لى وأردت أن أرد على هذه التحية ، فاستصحبت أحد أصدقائى إلى دارها التى تقع خلف دار الحكومة والتكية المصرية بقرب الحرم فوجدتها دارا كبيرة ، ووجدت بطابقها الأرضى مطبعة يشتغل فيها عدد كبير من العمال ، وسألت عن رئيس التحرير فاستصحبنا أحد رجال المطبعة إلى الدور الثانى وأرشدنا إلى غرفته ، وهناك لقينا « الاستاذ فؤاد شاكر » وقد قيل لى إنه صحفى مصرى كان يحرر فى « البلاغ » على ما أذكر أو فى إحدى الصحف التى أصدرها صاحب البلاغ قبله . لم أتحقق هذا الخبر، ولكن الرجل على كل حال قابلنا واحتفى بنا حفاوة بالغة ، وقدم لنا القهوة الحجازية، وحادثنا طويلا عن الصحافة وعن مقدار ما تسديه للناس من الخدمات .

لم أكن قد سمعت قبل هذه الزيارة أنه كان صحفيا مصريا فلم أفاتحه فى هذا الشأن .

وليست أم القرى كبيرة الحجم، وهى تصدر أسبوعية حاوية لأخبار الحكومة كلها ، شاملة أيضا لأخبار البلاد ، فهى تقوم فى الوقت بمهمة الوقائع الرسمية والصحف المحلية فى القطر المصرى وتنشر فيها مقالات أخلاقية ودينية بأسلوب قوى ، ومع صغر حجمها فإن معدات طبعها موفورة . وتوجد بالحجاز صحيفة خرى اسمها « المدينة المنوره » وتصدر بها .

فالصحافة هناك ممثلة أحسن تمثيل بقدر حاجة البلاد وموارها.

وعلى ذكر القهوة الحجازية لا بأس أن أذكر أنها قهوة تختلف عن قهوتنا ، فهى خلاصة ماء مغلى بالبن غير المصحون مع بعض أشياء أخرى تقـــدم فى فنجـان ولا تزيد على بعض نقط فى هذا الفنجان ، ولكنها لذيذة الطعم والنكهة والرائحة .

وكانت زيارتى « لأم القرى » أول زيارة لى فى مكة أتبعتها مباشرة بزيارة « التكية المصرية » .

ولقد شعرت عند ما دخلتها أننى فى مصر، بل اننى فى دارى بين أهلى ،فقد وجدت كل شىء مصريا ، فالدار مصرية أنيقة بالنسبة للمبانى فى مكة ، ولها مداخل كمداخل الدور المصرية القديمة ، وإذ دخلت إلى حجرة ناظرها «وكان الدكتور مصطفى عبد الخالق

وجدته جالساً بملابسه العربيـة على مكتب مصرى وفى غرفة مفروشة بالسجاد ، ولقينا الرجل باشا ضاحكا فرحا بأهل وطنه يحجون إلى داره ويأنسون اليه ، وقد كان يساعد المصريين كما لو كان سفيرهم هناك ، فكان خير عون لمبعوثنا السياسى والقنصلى هناك « الياس بك اسماعيل » فكم دأبا عـــلى خدمة المصريين ومساعدتهم ، وبذلا كل مجهود فى سبيلهم .

ولقيت هناك « الياس بك » وهو رجل دمث الأخلاق واسع الصدر ، طلق المحيا ، غزير الأدب ، يسمع شـــكاوى الكثيرين ويساعد الجميع على السواء .

وقد قدمت لنا القهوة المصرية هناك فسررنا بها أى سرور . وجعلنا من كل يوم من أيامنا وقتا نقضيه فى دارنا هذه ، وكنا كلما زرناها زادت محبة أهلها لنا ، وزاد تعلقنا بها وبهم ، وكنا نقضى ذلك الوقت بين الياس بك والدكتور عبـــد الخالق والدكتور نجيب بك قناوى والدكتور عبد العزيز بك الغمرى رئيس البعثة الطبية هناك .

وقد وضح لى جليا أن البعثة الطبية تقوم بالمعونة الحقة والعلاج المستمر والملاحظة التامة لكل من وفد عليها من الزائرين من مختلف البلاد والاجناس .

وكان عبد العزيز بك يتردد عـــلى المرضى فى منازلهم

ومساكنهم متى علم بهم ، وكانوا غير قادرين على زيارته بدار البعثة ، وليس من شك فى أن عواطف هؤلاء الناس عواطف سامية ، وهى تسمو حقا كلما كانوا غرباء بين الغرباء ، فإنك لتجدهم إخوة ورسل سلام ووئام ورحمة .

حدثت لى واقعـــة دلتنى على ما فى المصريين من كرم . فقد اتصلت ببنك مصر من مسرة « تليفون » التكية أسأل عما إذا كان تحويـل نقودى من المنصورة إلى بنك مكة قد وصل فأجابنى البنك بأن التحويل لم يصـــل اليه ، وانه ربما يكون فى جدة ، وأنهم سيتصلون بجدة لهذا الغرض ، وكان هذا الحديث على مسمع من نجيب بك قناوى والدكتور مصطفى عبد الخالق .

وقد ظنا من سؤالى أن نقودى قد نفدت ، فأمسك الدكتور عبـد الخالق بالتليفون ليطلب إلى البنك أن يصرف لى ما أشاء من حسابه أو بضمانته ، وأخرج الدكتور نجيب بك دفتر شيكاته ليحرر لى إذنا بنقود .

وعبثا حاولت إقناعهما بأن لدى نقودا كثيرة ، وانى رأيت السؤال من باب العلم فقط ، وأنى فضلا عن ذلك معى والدى ولديه نقوده التى تزيد على حاجتنا حتى نشترى هدايانا ونعود إلى مصر ، ولولا انى أقسمت لهما وأخرجت لهما حافظتى فاطمأنا لما أعفيانى من هذا التفضل .

ولكى تقدر قيمة هذا الجميل وعظمته أقرر لك أنهما لا يعرفانى قبل الحج ولم يسبق لنا التلاقى قبل لقائنا بمكة، وكان هذا مما ضاعف قيمة الفضل وجعل له بهاء فوق كل بهاء .

لقد سبق أن ذكرت أن التكية المصرية مقابلة للحرم الشريف ، ولذلك يمكنك أن تصلى فيها خلف إمام الحرم فى أوقات الصلاة عندما يكون المكان فى الحرم مزدحما .

وهذه التكية تنفق رواتب منظمة للفقراء وبها عيادة لعلاج المرضى مجانا ، وتقوم بهذه المهمة طوال العام إلى جانب أعمال البعثة الطبية أيام الحج .

وتقع التكية المصرية إلى جانب دار الحكومة الحجازية بمكة ، وقد زرتها فى اليوم التالى وعرفت نظامها الإدارى، ومن بين من زرته فيها رئيس الشرطة ووكيله .

وقد زرت المحكمة واطلعت على بعض قضاياها وعرفت نظام قضائها ، وهو نظام محكم .

فى بيت الملك

عدت من التكية المصرية إلى دارى وأنا معتزم زيارة دار الحكومة السعودية فى الغد لأرى ما وصلت إليه الأنظمة فى تلك البلاد ، فوجدت دعوة لتناول العشاء فى اليوم التالى على مائدة صاحب الجلالة ملك الحجاز ، فرأيت تأجيل زيارة دار الحكومة إلى ما بعد ذلك اليوم عسى أن يباح لى فى تلك الحفلة التعرف إلى بعض رجال الحكومة فيسهل ذلك على الوصول إلى الغرض من زيارتى ، لأنى وإن كنت قد دعيت إلى زيارة الدار من أحد موظفيها إلا أنها لم تكن دعوة لزيارة جميع فروع الحكومة .

كانت الدعوة الملكية مطبوعة على ورقة بيضاء جميلة ومحدد فيها وقت العشاء بعد صلاة المغرب فى اليوم المبين بها ، وجاءت السيارات تنتظر المدعوين أمام باب الحرم ودار الحكومة ، فركبت السيارة مع ثلاثة من رفاقى[1] وسارت بنا حتى وصلنا إلى القصر الملكى وهو قصر مؤلف من طابقين ، وأمامه سور يفصل بينه وبين الطريق. وقد وجدنا بعض رجال الحكومة عند الباب الخارجى

(١) هم عبد العزيز الغمرى بك رئيس البعثة الطبية . وزكى بك حسين القاضى والأستاذ محمد مصطفى الموظف بنيابة مصر .

يستقبلون المدعوين ، وكانوا يرحبون بهم والبشر والسرور ظاهران على وجوههم . وإذ بلغنا الباب الداخلى صعدنا السلم المفروش بالأبسطة الحمراء حتى وصلنا إلى الطابق الثانى ، وكان كل منا يظهر تذكرته بيده ، وقد لاحظنا أن المدعوين يوزعون على ثلاث حجرات فى القصر ، ودخلت مع صديقى زكى بك حسين إلى أول حجرة على يسار الداخـــل فى القصر بناء على ارشاد رجال التشريفات ، أما الغمرى بك فقـــد دخل إلى غرفة أخرى ، ولاحظنا أن تذكرته حمراء فسألنا عن القاعدة التى اتخذت فى توزيع المدعوين ، فقيل لنا إن المدعوين يجلسون فى ثلاث غرف ، الأولى حجرة جلالة الملك ، والثانية لنائب الملك فى الحجاز ، والثالثة لسمو ولى العهد ، ولم تكن الحجرة التى نحن فيها حجرة الملك .

ولست أخفى أن هـذا التوزيع آلم عواطفنا ، وكان زكى بك أشد منى ألما ، وتشاورنا فيما نعمل ، ففكر فى أن ننصرف قبل العشاء ، فقلت له إننى معك ، فهيا بنا على شرط أن نفكر فيما سنعتذر به اذا اعترضنا معترض ، وكان العذر حاضرا ، إذ أننى سبق أن قدمت أن يد زكى بك قد جرحت يوم وصوله إلى جدة ولا يزال تحت العلاج ويده مربوطة ، فإن سألنا سائل تعللنا بأنه فى حاجة إلى الراحة وتنظيف الجرح ، وهى حيلة قد تجوز

ولا تنكشف . وفعـــلا جازت على كثيرين، حتى اذا وصلنا الى الدور الأول عند الباب الداخلى وقابلنا رجل من رجال التشريفات وسألنا عن وجهتنا أفهمناه أننا منصرفان وذكرنا له العذر الذى اتفقنا عليه كما ذكرناه لمن سبقه فى الاستعلام ، ولكن الحيلة لم تجز عليه !

قال لدينا فى القصر مكان للإسعاف، فاعتذرنا ، فأبى، فصممنا ولكنه صمم أيضا ، وأخيراً قلت له إن لدينا سببا يحـــتم علينا الانصراف ويمنعنا الواجب عن ذكره فاسمح لنا بالذهاب ، قال إن التقاليد لا تسمح بهذا فى القصور، فإن كان السبب شخصيا فاصبرا عليه ، وإن كان السبب قد حدث هنا فاذكراه وأنا كفيل بإصلاح الأمر ، ولم نتزحزح عن موقفنا ، وكاد يكون الموقف حرجا ، وساد صمت قليل قطعه علينا محدثنا بقوله « إنى مصرى أصلا » وتقضى علينا أخلاقنا أن نكون أمناء لرؤسائنا فى أى بلد كنا، وهذه الأمانة تمنعنى من السماح لكما بالانصراف، ولكنى فى الوقت نفسه مكلف بالعمل على راحة الزائرين، قلنا : أمصرى أنت حقا ، قال نعم !. قلنا وهل يكون لنا شرف التعرف بك ؟ قال أنا عبد السلام غالى من علماء الأزهر الشريف ومن مديرية البحيرة ، ولى أخ فى مصر من رجال القلم، وعائلتى موجودة هناك وأنا أتردد عليها بين حين وآخر !

أأنت مصرى حقا ؟

لقد كان سرورنا عظيما بهذه المصادفة الجميلة، فالرجل نشيط جم الأدب ، جميل الخلق، هادىء الطبع، مخلص فى عمله ، يشغل مركزا ممتازا فى مكة وهو حركة دائمة ولقد فهمنا من معاملة رجال القصر له أنه ذو مركز عظيم بينهم ، لأنه محل احترام وتقدير .

قلنا له ما دام عذرنا لم يجز عليك فلنذكر لك الحقيقة ، فقد شعرنا أننا وضعنا فى مركز لا نوضع فى مثله ببلادنا !!

قال ان رجال القضاء هنا محترمون كما يحترمون فى مصر تماما ، وليس توزيع الأماكن فى هذا الاحتفال مبنيا على أقدار الرجال والتفريق بينهم وتمييز فريق منهم على آخر ، انما لونت التذاكر لحصر الذين يدخلون الى كل غرفة، لأن المدعوين كثيرون ولا تسعهم غرفة واحدة، ولم يكن هناك بد من توزيعهم على الغرف، حتى اذا ما شرف جلالة الملك غرفته ذهب الجميع من مختلف الحجرات لمقابلة جلالته ، ثم يذهبون جميعاً إلى غرفة المائدة حيث يجلسون فى حضرته دون تمييز وحيث يجلس كل منهم فى المكان الذى يختاره ، والذين جلسوا فى غرفة النائب أو ولى العهد أسعد حظاً ، لأنهم سيتمتعون بمجالسة الأمراء فى حجراتهم ، ثم يذهبون جميعاً الى مكان جلالة الملك عند ما يشرف فيتمتعون مرتين .

ثم استدرك فقال : على أنى إرضاء لكما ودرءا لما عسى أن يعلق بذهنكما من أثر هذا التوزيع سأذهب بكما الى غرفة جلالة الملك مباشرة ، وسار أمامنا الى هناك .

لم يكن الملك جالسا عند دخولنا فجلسنا مع الجالسين فى الانتظار ، وبعد قليل أحسسنا بحركة ودخل بعض رجال البوليس من باب الغرفة ثم تبعهم بعض رجال القصر يفسحون الطريق وفى أثرهم دخل جلالته وتوجه إلى صدر الغرفة حيث جلس فى جانب من ذلك الصدر الى يسار الياس بك اسماعيل ، والى يمينه وزير يمنى على ما علمت ، ثم أشير للزائرين بالجلوس فجلسوا وأخذ رجل من رجال التشريفات يناديهم واحدا بعد الآخر فيقدمهم الى الملك وهو يستقبلهم واقفا ويصافحهم جميعاً ثم استدعى من فى الحجرتين الأخريين فدخلوا وسلموا .

وتقدم بعض الخطباء ومن بينهم مصرى معروف فخطبوا بين يدى جلالته ، ثم بدأ يلقى درسا على الحاضرين مقتبسا من القرآن وتفسيره والدين وأحكامه ، ودعا الى الاتحاد والوفاق بين العرب . ثم نهض جلالة الملك الى غرفة المائدة حيث جلس بين وزير اليمن وقنصل مصر والمدعوون الى جوارهم على مائدة مديدة فى غرفة طويلة اتسعت للمدعوين جميعا .

ونظام المائدة هناك أن توضع جميع أصناف الطعام على

المائدة قبل دخول الضيوف ، وهم يتناولون صنفاً بعد الآخر بالترتيب الذى يتناول به الملك طعامه بأن يؤخـــذ الطعام من كبار الاوانى حيث يضعون أمام كل ضيف طعامه فى طبقه ثم يرفعون الاطباق كلما تغير الصنف .

كان أمام كل أربعة أو ستة ضيوف آنية كبيرة من النحاس « طشت » ملأى بالارز المخلوط ، وعلى قمته حمل من الضأن وفى الاطباق الاخرى دجاج وسمك وأنواع الخضر والفواكه والحلوى والفطائر والفواكه ، وكانت الاخيرة هى التفاح والبرتقال والموز

كان الطعام كثيراً جدا إلى حد أن أكل الحاضرون وشبعوا ومع ذلك بقيت الصحاف وهى تكاد تكون ملأى ، وكان ما فيها يكفى لثلاثة أمثال المدعوين على الاقل .

ولما انتهينا من الطعام قام جلالة الملك وتبعه الباقون الى حيث كانت الطشوت والأباريق النحاسية والفضية موضوعة فى ردهة على كراسى ، والخدم واقفون يصبون الماء على ايدى المدعوين .

ثم عدنا إلى صالة الجلوس وجعل جلالة الملك يلقى درسا آخر ، وعندئذ قدمت القهوة العربية ، وكان يقـدمها رجال يلبسون حللا حمراء مزركشة جميلة الصورة ، متقنة الصنع مكونة من قطعتين .

ومن قواعدهم فى تقديم القهوة أن يضعوا فى الفنجان مقدارا

صغيراً ، ذلك أن القهوة عندهم تقدم مركزة فلا يستطيع أحد أن يشرب منها فنجانا كاملا وإلا خدرته ، ولكنه إذا شرب كل ما قدم اليه كان هذا دليلا على رغبته فى المزيد فتقدم اليه كمية أخرى دون أن يطلبها .

وبعد قليل قدمت القهوة مرة ثانية ثم دخل الخدم مرة ثالثة يحملون أوانى ملأى بالعطور فقدموا منها لكل الحاضرين وفهمنا أن دخولهم هذه المرات الثلاث وبهذا الترتيب الخاص انما بنى على أمر جلالته بمقتضى اشارات اعتادوا عليها يصدرها لهم جلالته .

ثم وقف جلالته إيذانا بانتهاء الحفلة ، فتقدم الحاضرون للسلام عليه وانصرفنا حيث اعادتنا السيارات الى حيث كنا .

وكانت هذه هى حفلة استقبال الحجاج فى أرض الحجاز أعقبتها دعوة أخرى من جلالته بعد العيد ، وكانت الآخرة حفلة الوداع فى أرض الحجاز ، والحفلتان متشابهتان فى نظامهما كله عدا الأخيرة ، فقد كانت الدعوة إليها للحضور قبل المغرب بينما كانت الأولى بعده ، وكان عدد المدعوين فى المرة الاخيرة أقل من عددهم فى الاولى وكانت هناك بعض تغييرات فى أصناف الطعام .

وكان أهم ما لفت الأنظار فى الحفلين السابقين الديمقراطية العربية الصحيحة ، والكرم العربى المطبوع ، والأدب العربى

المؤسس على الغريزة ، وتمسك ملك العرب بدين سيد العرب .

وقد رأيت جلالة الملك - وهو يشرب من ماء خاص - يتحدث عن الماء الذى يشربه ، وكيفية استحضاره من عين بعيدة عن مكة ، ورأى اكراما لجاره ان يقدم له آنيته الخاصة ليشرب منها هذا الماء .

وكان من أجمل الآثار التى بقيت فى نفسى الى الآن كفاءة المصرى أين حل ، وفى أى عمل يتولاه ، وأجمل من هذا أمانته وإخلاصه لمن يوليه أموره ويأتمنه على أعماله ، وقد نالت كفاية الاستاذ عبد السلام عالى وادب « عبد السلام غالى » واخلاصه كل اعجابى .

فى دار الحكم والقضاء

تقع دار حكومة مكة أمام الحرم ، بجوار التكية المصرية ، وهى بناء متوسط الحجم ، به عدة غرف مقسمة بين عمل الداخلية وعمل القضاء . ولوزارة المالية بناء آخر مستقل ، كما أن لأمانة العاصمة والإسعاف دوراً أخرى .

زرت الحكمدار ، وهو يجلس فى أول غرفة على يسار الداخل ، فرأيته رجلا محنكا مؤدبا ، أحسن استقبالنا وقدم لنا القهوة الحجازية وجلسنا معه قليلا فلم يعرض عليه أثناء ذلك شيء من الأعمال ، ثم انتقلنا إلى وكيله « جميل بك » فى غرفة أخرى فوجدناه شابا طلق المحيا مشغولا بشتى الأعمال .

وشاهدت فى أحد أركان غرفته عديدا من الأمتعة والناس يدخلون اليه واحدا بعد الآخر يقدمون له أن أشياء فقدت منهم فى الطريق بين جدة ومكة ، فيسلم كلا حاجته بعد ذكر أوصافها ، ورأيت شيخا جليلا يعرض أنه فقد « حرامه » وهو « حرام مما يلبسه العلماء فى مصر ويساوى من الثمن عشرين جنيها مصريا » وسرعان ما أمر « جميل بك » بإحضار هذا الحرام

وعرضه على الرجل فاستعرف عليه . فطلب اليه أن يقدم شهوده وقال له فى أدب « انـــنى لا أشك فى صدقك ولكنه شىء عظيم القيمة ، ولا أستطيع أن أسلمه دون تحقيق » فانصرف الرجل شاكرا هذا التقصى وعاد بعد ذلك ومعه شهوده فسلمه اليه . وتقدم رجل يطلب عباءة فقدت منه فى الطريق فعرض عليه عباءة تماثلها ، وتأمل الرجل العباءة المعروضة عليه وتردد فقال له جميل بك : « تأمل جيدا فإنها ان لم تكن تلك فهى لغيرك ولابد أنه سيحضر للسؤال عنها » وأخيرا قرر الرجل أنها ليست له. ولم تكن هناك عباءة أخرى غيرها فى الغرفة ، فطلب منه أن يذكر مكان فقدها وأن يذكر أوصافها بدقة ، وأن يعود اليه بعد غد، فقد حدثته جـــدة تليفونيا وأخبرته أن لديها أشياء مفقودة سترسلها اليه ولعل العباءة من بينها .

سألنا جميل بك كيف تصلكم هذه الأشياء ، قال إن من يعثر على شىء يقدمه إلى أقرب نقطة بوليس ، وهى من جانبها ترسله الينا ، والناس يعلمون ذلك فيحضرون للبحث عن حاجاتهم .

قلت له : ألا يضيع شىء أبدا ؟ وهل كل ما فقد يعود إلى أصحابه ؟ قال نعم .

قلت له ضاحكا : لقد فقـــد منى فى ميناء جدة زجاجتان من شراب البرتقال أحضرتهما معى من مصر فى حرز خاص

ولكن هاتين الزجاجتين لم تعودا إلى مع لزومهما لضيوفنا فى مكة .

قال لابد أنهما فى جدة ، وفى أثناء الحديث وعلى غير علم منا أمسك بمسرته وطلب جدة وظننا أنه يطلبها لعمل آخر ووضع السماعة فى انتظار خلو الطريق ثم قال : سأسأل الآن فى جدة عن هاتين الزجاجتين .

قلت : وهل طلبت جدة لهذا الغرض فقط ؟ قال نعم . قلت له إن أجر المكالمة يساوى ثمن زجاجة ، وليس للزجاجتين فى نظرنا أى اعتبار يكفى لبذل هذا الجهد ، ورجوناه أن يعدل عن هذا السؤال ، ولكنه تمسك برأيه الى أن أقنعته اننى سأسأل عنهما بجده عند سفرى إلى المدينة فاقتنع وعدل عن الكلام ، ولكننى طبعا لم أسأل عن الزجاجتين إلى الآن .

قال إنه أحيانا تضيع بعض أشياء يسكت من يجدها عن التبليغ عن وجودها ، ويسكت فاقدها عن التبليغ عن فقدها ولكن هذه الأشياء قليلة ، وغالبا تكون صغيرة القيمة ، فمنذ أن جرى حكم الشرع فى الحجاز ووجد اللصوص ان أيدى السارق تقطع عدلوا عن السرقة ، إذ ليس فى الوجود شىء يعدل اليد التى يفقدها صاحبها ، فضلا عما يترتب على فقدها من الفضيحة والعار ، والعمل فى هذا القسم دقيق وسريع جدا .

كان طبعياً بعد ذلك أن أنتقل إلى القسم المخصص للمحكمة فدخلت الى غرفة بها عدة مكاتب يتوسطها مكتب القاضى والى جواره فى الجانب الآخر مكاتب الموظفين ، وأمام مكتب حضرة القاضى مقاعد مخصصة لجلوس المتقاضين ، وعلى مكتبه آلة التليفون ، وهكذا تجد الغرفة معدة لجلوس الموظفين جميعا كما هى معدة لجلوس المتقاضين أيام الجلسات .

ولم يكن اليوم يوم جلسة ، ولهذا لم نجد حضرة القاضى هناك .

وقد استقبلنا رئيس الكتاب وأخبرنا ان الجلسات تعطل فى أيام الحج خصوصا فى الأيام المحصورة بين قبيل العيد وبعده ، لأن المكيين مشغولون بأعمالهم وأرزاقهم ومعاونة الحجاج ، وهم كذلك مشغولون عن التقاضى بمتاجرهم وأعمالهم ، وهذا طبعا لا يمنع من المحاكمات المستعجلة التى لا يمكن تأجيلها .

وقد أطلعنى على بعض القضايا فوجدتها تحقق طبقا للنظام المعروف هنا ، فيسأل الشاكى وشهوده ويسأل المتهم ويناقشون جميعاً بقدر ما تسمح به الحال ، وشاهدت فى قضايا العرب كشوفا طبية مكتوبة بالآلة الكاتبة توصف فيها الإصابات وصفاً دقيقا ، وتقدم هذه القضايا بمعرفة السلطة المختصة ويسمع القاضى القضية من جديد ويحققها بنفسه ثم يقضى فيها بعد ذلك .

والقضايا هناك لا تحفظ بمعرفة سلطة التحقيق، وانما يحفظها القاضى بعد تقديمها اليه ، ولعل الحفظ هناك أوسع من البراءة هنا ، فالمفروض فى البراءة أنها تقرر أن المتهم لم يرتكب الفعل أو لم يثبت عليه ارتكابه،أو ارتكبه وهو غير معاقب عليه ، أما الحفظ هناك فيشمل هذه البراءة وأنواع الحفظ المعروفة لنا فى مصر .

ويحكم القاضى الواحد فى القضايا العادية ، وهذا الوضع يختلف بالنسبة للقضايا التى تشتد فيها العقوبة ، فالقضايا التى يحكم فيها بالإعدام أو بقطع اليد ينظرها مجلس قضائى خاص زيادة فى التحرز والاحتياط .

وتسير الأحكام هناك على قواعد الشريعة الاسلامية حرفا بحرف طبقا للقانون السماوى الذى فصلت قواعده فى القرآن الكريم .

وهناك شاهدنا أشخاصا قطعت أيديهم اليسرى وهم يسيرون فى الطرقات يتكففون الناس .

ولست فى حاجة إلى أن أقرر أن هذا القانون يسرى على كل من يوجد فى الحجاز، لا فرق بين وطنى وأجنبى ، ولم يحدث أن تقزز الناس منه على كثرة الأجانب هناك فى أيام الحج . بل إن هذا القانون موضع اعجاب العالم كله .

ليس هناك من ينظر الى هـذا القانون على أنه غير مطابق لروح العصر ، بل إنه معتبر رحمة كبرى ونعمة عظمى ، واليه وحده يرجع الفضل فى استتبـاب الأمن فى الحجاز ، وفى حرية الإقامة والاطمئنان على الأنفس والأموال .

من ذا الذى يرضى أن يفقـد يده لسرقة شىء من أعراض الدنيا مهما غلا ؟ فما بالك إذا كانت السرقات عادة تقع على أشياء تافهة كما نرى فى بلادنا وغيرها من البلاد المتمدينة ، بل من ذا الذى يسهل عليه أن يفقد يده لقاء رغيف أو قرش أو عود من القصب أو بعض الثمـار أو ما شابه ذلك ؟ ومن ذا الذى اذا سهل عليه فقد يده يقبل على هذا العمـل الذى لا مفر لقاءه من قطع يده فضلا عن الفضيحة المستمرة الملازمة له فى الإعلان عن جريمته فى كل مكان .

لذلك تكاد السرقات تكون منعدمة هناك . ولهذا تجد عند وكيل الحكمدار كل شىء فقده صاحبه غلا أو رخص . ولا محل للظن بأن العبادة التى تغمر أرواح الناس هناك هى الدافع لهم على عدم السرقة ، فقديما كان يسافر بعض الناس متظاهرين بالحج والرغبة فيه ، وما كانوا يقصدون غير السرقة والنهب ، بل انك لتجد فى مصر كثيرا من الناس يذهبون إلى المساجد بحجة اداء الصـــلاة ثم يتهزون استغراق المصلين فى الصـــلاة

فيسرقون حذاء رخيص القيمة يهربون به . فليس الوقوف بين يدى الله فى العبادة وحده رادعا للناس ، فالنفس الخبيثة لا يردعها الا الخوف من العقاب السريع الزاجر ، أما مخالفة الناس لله جل وعلا فكثير منهم يستهينون بها .

الواقع أن تنفيذ القانون السماوى هو الذى أمن الناس على أموالهم وارواحهم ، فأكثر السفاكين فى أرض الحجاز كانوا يقتلون من أجل الحصول على أموال الحجاج ، فهذه السرقة لم تعد هينة كما كان الحال فى الماضى ، فإن من ينجح فى السرقة لا يجد من يعاونه على اخفاء مسروقاته ، ومن يقتل يُقتل حتما فيصدر عليه حكم الإعدام ، ويحدد يوم لتنفيذه . والتنفيذ يكون فى الطريق العام .

حدث أن اثنين ارتكبا جريمة القتل ، فقتلا علنا فى الطريق العام أمام الحرم الشريف والتكية المصرية .

وكان أحد هذين القاتلين قد تغيظ يوما فحمل سكينا وقتل أحد زملائه من الجاويين ، ثم زادت ثورته فضرب فى طريقه كل من قابله أو حاول أن يتعرض له .

فلما كان يوم التنفيـــذ أعان الأمر للناس ولم أتمكن من مشاهدة هذا المنظر ، لأنى كنت مشغولا بأمر آخر ، فضلا عن أنى لا أستريح لمثل هذه المناظر ، لكن الذين شاهدوه وصفوه لى

فقالوا أحضر الرجلان وأجلسا متباعدين، وظهر كل منهما للآخر وقد أوثقت أيديهما وجلس سياف خلف كل منهما، فلما أعطيت الإشارة للسياف هوى بسيفه على رقبة المحكوم عليه وضربه ضربة واحدة عزلت رأسه عن جسمه ومات بعد قليل .

وهذه العلانية فى الأحكام ، والشدة والدقة فى اصدارها وتنفيذها هى صاحبة الفضل الأول فى استتباب النظام والأمن فى ربوع هذه الأراضى المقدسة .

عرفات والمزدلفة ومنى

اقترب اليوم الثامن من ذى الحجة، وهو يوم مغادرة الحجيج مكة إلى عرفات لأداء مناسك الحج، اليوم الذى ينتهى بعد الليلة التالية له الامتحان!

ربنا وفقنا لما تحب وترضى. ربنا أتمم علينا نعمتك الخالدة، ومنتك الباقية، وأسبغ علينا من فضلك ما أسبغت علينا منذ هامت نفوسنا بهذه الفريضة.

ها نحن على استعداد للسفر، وقد سبقنا مطوفنا فأعد لنا مأوى نأوى إليه الليلة التاسعة من الشهر، وقد اتفقنا أن تكون خيامنا الثلاث متجاورة ليستمر بيننا الجوار والعرفان والوئام، وليكون هذا تمهيدا لبقاء الروابط بيننا مدى الحياة.

نعم نحن على استعداد للسفر، ولست أدرى لماذا نشغف بكل حركة يستلزمها أداء هذه الفريضة: شغفنا بالذهاب إلى الحرم، وكنا مدفوعين برغبة لا قبل لنا بدفعها، وشغفنا بالتحرك للسعى بين الصفا والمروة، وإذ أتيح لنا دخول الكعبة صعدنا السلم مهرولين حتى لتكاد تزل بنا أقدامنا.

لقد اتفقنا مع مطوفنا على أن يحضر لنا سيارتنا عقب صلاة

الظهر ، وأعددنا متاعنا لهذا الغرض ، لكنا فرغنا من الصلاة ولم تحضر السيارة ، فصلينا العصر وإذا بها تحضر . ولما أخذنا نعتب على مطوفنا اعتذر بالتزاحم على السيارات لذهاب الحجاج جميعا اليوم إلى عرفات ثم قال : وقد استطعت بجهد جهيد أن أختطف لكم هذه السيارة ، فركبناها وسرنا من الشبيكة « مقرنا » إلى خارج مكة بالقشاشية . وشاهدنا فى طريقنا بيتا عفى عليه الزمن . لم ينل منه البلاء وإنما نال منه الحريق . عليه آثار النعمة التى أفناها الزمان ظاهرة ، ذلك هو قصر شريف مكة فى الأيام الخوالى .

« اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

اللهم لك فى كل مكان آية تدل على أنك الخالق الحاكم المطلق لا تعقيب لأحد على حكمك ، ولا مرد لقضائك .

اللهم لك فى كل مكان مظهر يدل على أنك الواحد القادر ، المعز المذل الباقى .

ها نحن الآن قد وصلنا إلى قصر ابن السعود . وخطر لى أن أذكر كيف دارت الأيام فانتهى عهد وبدأ عهد ، واندثر قصر وازدهر قصر ، ثم تذكرت قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وأن القصور كذلك تجرى عليها الأحكام ، والناس على اختلاف طبقاتهم لا يذكرون الله إلا إذا ألمت بهم ملمة أو أصابتهم محنة .

لقد ذكرنى هذا المنظر بكثير من أمثاله فى مختلف الأقطار وذكرنى بحادث حريق وقع فى عابدين من قرابة ثلاثين عاما قال فيه المرحوم حفنى بك ناصف قصيدته المشهورة التى مطلعها :

« قصر عليه تحية وسلام »

وذكرت إذ ذاك الفرق بين حكم الحجاز اليوم وحكمه فى العهد الماضى ، والأمن الحالى والأمن السابق ، وعسف الحكام فى الأيام الخوالى وعدلهم فى العهد الحاضر ، وادركت أن انهيار ذياك السلطان واندثار ذلك القصر إنما كان جزاء وفاقا ، وأن الله جلت قدرته قد أخذ حق عباده المظلومين من عباده الظالمين ، وقيض رجال الحكم الحاضر لينشروا الأمن فى أرضه المقدسة ، ويشيعوا الطمأنينة فى نفوس الذين تهوى أفئدتهم إلى أهل الحجاز بالعطف والمرحمة .

لقد كاد الناس قبل العصر الحالى ينقطعون عن فريضة الحج وهم محقون ، فلقد كان الحاج يخرج من داره وهو معتقد انه متعرض للخطر وللموت ، ولذلك كان أهله يبكون عند خروجه .

ولعلك لا تدرك قيمة أرواح الناس فى ذلك العهد ! ! لقد كان القتل فى تلك الأراضى أمرا هينا ، وإذا ظننت أن فى هذا أية مبالغة فإليك ما كتبه المغفور له ابراهيم رفعت باشا فى رحلاته

التى انتهت سنة ١٩٠٨ فى زيارتة لجبل النور « فى غار حراء » بالصفحة التاسعة والخمسين « ينبغى لزائرى هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعات يحملون السلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون لسلب الحجاج . فقد بلغنى أن أعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له : أتقتله من أجل ريال ؟ فقال وهو فرح : ان الريال أحسن منه !! فانظر كيف بلغت القسوة من هذه القلوب . الخ »

ويبدو لى أن رفعت باشا يحمل الحكام مسئولية هذه الفوضى وإن كان يذكر ذلك بأسلوب الحكيم إذ يقول « ان للشريف يدا قوية فى الدولة ، فأى الأمور طلب أجيب إليه ، بل غالب الشكايات منه ترد إليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى ولا معقب لحكمه ، فالويل كل الويل لمن شكا ، نعم هذه اليد المستبدة « كذا » تناسب حال الأعراب . ولكن لو ضمت إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم ، لأن للعدل من السلطان على النفوس ماليس للقوة الغاشمة »

أليس هذا صريحا فى أن الباشا ينسب الفوضى إلى الشريف نفسه ، ويتهمه بأنه يحميها ؟! لقد سمعنا إذ كنا فى الحجاز من رجل محترم حضر العهدين ان رجال الحكم فيما مضى كانوا على اتصال بالقتلة والسفاكين واللصوص ، وكان لبعضهم على بعض إتاوة ، والعهدة فى ذلك طبعا على الراوى ، وهو كما قلنا رجل محترم .

وقد ساق فى التدليل على ذلك قصة فقد أمتعته وكيفية البحث عنها فى سنة من السنين ، على أنى لا أجد محلا للشك فى تلك الروايات كلها وإلا فما سبب انقلاب الحال من فوضى الأمس إلى أمن اليوم إلا أن يكون الانقلاب من ظلم الأمس إلى عدل اليوم ؟!

تلك أفكار جالت بخاطرى فقطعت فى ذكرها الطريق من مكة إلى عرفات ، وها نحن قد وصلنا ولا تزال الشمس طالعة تسطع بأشعتها الذهبية اللامعة على رمال عرفة وجبل الرحمة، فسبحان خالق الشمس والرمال ، وسبحان خالق الطبيعة وما يحف بجلالها من جمال .

أيها الناس : اطربوا وافرحوا . أيها الحجاج اذكروا الله ولا ذكر هنـــا لغير الله . أفما راعكم أن يجمع الله ثمانين الفا من الناس من مختلف الأقطار فى قطعة من الأرض مقفرة ، فلا تلبث بين عشية أو ضحاها أن تمتلىء بالخيام وبالناس وبالمتاجر والجمال والسيارات ، ثم لا تلبث ان تنفض هذه الجموع الزاخرة غدا فتعود مقفرة كما بدت ، ثم تبقى هكذا إلى العام القادم ؟ .

لقد اجتمعنا هنا للعبادة والانقطاع لها ، فكم نستمتع بهذه العبادة ؟ ان تلاوة الدعاء المعروف أحلى عندى آلاف المرات من ألف قيثارة فى يد أعظم الفنانين شأنا ، إنه طرب ليس بعده طرب ، وفرح لا يعدله فرح ، ولذة روحية لا تضارعها لذة .

نحن فى ليلة وقفة عرفات ! فى عرفات نفسه ، فأى توفيق أبدع من هذا ؟ لو كنا فى ديارنا لكانت كل أمانينا أن نجتمع بأولادنا وأهلنا وأقاربنا ، ولكن الله جل جلاله وروعة قدرته الخارقة جعلت أفكارنا محصورة فى عرفات وحده .

وتسامرنا مع زملائنا ثم انصرفنا إلى النوم فاستيقظنا قبيل الفجر ، وعدنا إلى الاجتماع فى الصباح ، فقلت تعالوا بنا نشترك فى غداء اليوم ، وفعلا اشتركنا وساهم كل منا فيه بنصيب ، وما كان الغداء إلا حملا ثمنه خمسة وأربعون قرشا وبعض من البطاطس والبطيخ ، ولكنه كان غداء جميلا شهياً .

ولقد كان نهار عرفات حارا بمقدار ما كان ليله باردا ، ولكن جمال الموقف ألهانا عن البرد وعن الحر معا .

إن الوقوف بعرفات شرطه أن يكون بعد زوال اليوم التاسع ويمتد إلى غروبه ، ومعلوم أن عرفات كلها موقف . ولكن أنى لنا أن نصبر على الوقوف بمكاننا والجبل على قيد أمتار منا ؟ وأنى لنا الصبر على صعود الجبل إلى وقت الوقوف ، فلنذهب إلى الجبل فنصعد عليه لنستمتع به ، ثم لا ضير أن نعود بعد ذلك فى الموعد الذى يتم فيه الحج .

لقد انتشر رجال الشرطة ليمنعوا الازدحام عليه ، مخافة أن يصيبهم مكروه من جهة ، وليظل الطريق واسعا حتى يحضر

الملك ويصعد عليه من جهة أخرى ، ولكنا استطعنا أن نصعد إليه ، وهو مدرج تدريجا بعضه طبيعى وبعضه قد هذبته يد الانسان ، وقد شاهدنا عليه مصلى قيل إن النبى عليه الصلاة والسلام قد صلى فيها ، ولكن المؤرخين ينفون هذه الرواية ويقررون أنها نشأت بعد عهده عليه السلام، ووجدنا فى أعلاه مسطحا كبيرا مستوى الأرض، مربع الشكل منتظم الوضع فوقفنا عليه قليلا ثم انصرفنا .

إن العادة قد جرت على أن يصعد على جبل الرحمة خطيب شرعى يخطب الناس ويدعو، وهم يرددون دعاءه ويقولون فى صوت واحد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »

وكانت ساعة رهيبة حين اجتمع الحجيج على جبل الرحمة وعلى سفحه فلا تكاد تتبين اجسامهم أو ترى الأرض من تحتهم لكثرة عديدهم ، ولا شك ان هذه لحظة من لحظات العمر التى تسمو فيها النفس عن الحياة وعن الأحياء .

وإنه لمنظر حبيب رهيب إن غاب عن العين فقد سكن فى الذهن لا يغيب عنه أبدا ، وإنها لذكرى كل شىء فى العالم ينسى إلاها .

وإن تعجب لقدرة الله فلن يكون عجبك مقصورا على أنه

جل جلاله قد خلق العالم بما فيه من نعماء، ولا لأنه خالق الإنسان وصوره وأودع فيه كل بهاء، بل سيبهرك اجتماع هذه الآلاف فى صعيد منعزل عن العالم، مقفر، ويزداد عجبك إذا شاهدت الماء ينساب فى هـــذه الجبال. هنالك مدت زبيدة الصالحة زوج هارون الرشيد عين حنين فى قناة إلى مكة لكى تروى الظامئين، لأنها عرفت ما يقاسيه الحجاج من قلة الماء، فأمرت بهذا العمل الذى يعتبر من أهم الأعمال العمرانية الخيرية الخالدة فى تلك الأراضى الجدباء.

* * *

لقد فات غروب اليوم التاسع من ذى الحجة. وقفنا وقفتنا بعرفات وأتم الله نعمته علينا فتم الحج. اللهم لك الحمد والشكر على ما أوليتنا، اللهم وفقنا لما بقى من الواجبات واجعلنا من المقبولين فسننصرف إلى المزدلفة فمنى، وسينصرف اليهما هؤلاء الناس جميعا فى لحظة واحدة، وسينفض الجمع فى عرفات ولا يجتمع فيه أحد إلا بعد عام كامل، وهؤلاء جميعا منصرفون طواعية وخضوعا لقوله تعالى « فإذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هـــداكم » فإلى المشعر الحرام جميعا.

ولما وصلنا وقفت بنا الرحال لنتجاذب أطراف الحديث

ثم أخذنا فى جمع الحصيات من الأرض لنرجم بها فى منى. ولا يهولنك أن تعلم أن الثمانين ألفا من الحجاج يجتمعون على هذه الأرض ليجمع كل منهم بين الخمسين والسبعين حصاة تقريبا من حجم معلوم، وهذه الارض تتيح ذلك كله. وليس هذا سهلا، ولكن الله يسره لى، فقد ذهبت لصلاة العشاء فأخبرت أن بالمزدلفة مسجدا رأيت ضوءه على بعد يسير فذهبت إليه فوجدته مؤلفا من سور قصير يحيط بقطعة من الفضاء عارية عن السقف، خالية من الفراش، فصليت ولا حظت أن به عددا من الحصى فجمعت منه حاجتى، وبعد ذلك جلست تحت السماء انتظر ساعة الانتقال إلى منى، وكان الجو باردا جدا أصابنا منه شىء، ولكنه كان فى سبيل الله.

بين منى ومكة

ركبنا سيارتنا فى المزدلفة بعد منتصف الليل ، وتوجهنا الى الخيمة التى اقامها لنا مطوفنا فألقينا متاعنا وجلسنا نستريح ، وكان الهواء عاصفاً حتى كاد يقتلع قوائم الخيمة لولا أنها كانت مثبتة فتغلب عليه ثباتها وبقينا بها حتى مطلع الفجر ، ثم اجتمعنا وانقسم جمعنا الى فريقين : يرى أولهما أن الجمار يمكن رميها فى ذلك الوقت ، ويرى الثانى أنه يجب أن يكون رميها عند الظهر ، ولكننا أجمعنا بعد ذلك حسب ماقرر العلماء على أنها ترمى فى صباح ذلك اليوم ، فتوجهنا اليها لرميها استعدادا للنزول الى مكة بعد ذلك .

ولقد كان منظراً رائعا أن ترى الناس على اختلاف طبقاتهم وبلادهم وبينهم الملوك والامراء يتوجهون بنظام واحد الى هذه الجمرات فيرمونها بالأحجار التى التقطوها من المزدلفة ، ولهذا ذهبنا افواجا متلاحمة الى « جمرة العقبة » فى أول منى فقذفناها بسبع حصيات ثم انصرفنا مكبرين واتجهنا إلى مكة حيث قمنا بطواف الافاضة وسعينا بين الصفا والمروة ، ثم عدنا الى منى حيث قضينا ليلتنا . وفى زوال اليوم الثانى رمينا الجمار ثلاث مرات ، وكذلك فى اليوم الثالث ، ثم عدنا مرة أخرى الى مكة لنستعد للسفر الى المدينة المنورة . وفى خلال ذلك دعانا ملك الحجاز لتناول العشاء على نحو ما أوضحته سابقا .

وقد قضينا بمنى أيام العيد، وكنا نحس أننا حقيقة فى عيد نتبادل الزيارة والتهانى مع زملائنا، وللحكومة المصرية هناك أثر جليل، فلها مبنى به سبيل للمياه واستراحة للزائرين، ولها بعثتها الطبية تداوى المرضى وذوى العلة من جميع الطبقات والجنسيات، وتصرف لهم الأدوية بغير مقابل.

ولست أخفى عليك أن مسألة رمى الجمار كانت محل تفكير الكثيرين منا يسألون عن علتها ومغزاها، ويقول بعضهم: أى أثر لهذا العمل على الشيطان، وقد كنت من المحبذين والمؤيدين لرمى الجمار حتى دون أن تبحث علته ومرماه، ذلك لأن الاحساس الذى يستولى على النفوس وقت رميها إنما هو احساس صحيح بالعداوة التى تكمن فى النفوس لهذا الشيطان، وازدراء أمره واحتقار شأنه، وهو تضامن واتحاد بين الناس على هذا الازدراء وذلك الاحتقار.

على أنه قد ثبت فوق ذلك أن لرمى الجمار حكمة أخرى هى احياء عهد ابراهيم عليه السلام، وفى ذلك ما فيه من غذاء للنفوس بدين الله وذكر للتاريخ القديم، ولهذا فانك لا يمكن أن تعبر عن الشعور الذى يستولى عليك حين القيام بهذه الحركات الاجماعية التى يؤديها مختلف المسلمين من شتى البلاد.

وبعودتنا الى مكة بعد اتمام طواف الافاضة والسعى وتحللنا من الإحرام على النحو الذى سبق بيانه ينتهى الحج

بسلام ، واذ ذاك أحسست انى اديت الفريضة ، ودعوت الله أن يستجيب حجى ، وان يقبل عبادتى ، وان ييسر لى أمر زيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

وتوجهنا الى رئيس المطوفين ، وطلبنا اليه التصريح لنا بالسفر فامتنع قائلا : ان الحكومة الحجازية أمرت بألا يغادر حاج مكة الا بعد صلاة الجمعة ، فتوجهنا الى سفيرنا هناك وعرضنا عليه الأمر وأفهمناه أن إجازاتنا على وشك الانتهاء ، وانه ليس هناك بد من رحيلنا الى المدينة لنقضى بها واجبنا ثم نغادرها الى بلادنا حيث ينتظرنا أهلونا وأعمالنا ، فتعهد بتيسير مهمتنا واتفق معنا على أنه سيتحدث مع وزير المالية الحجازية فى هذا الشأن فى حفـــلة العشاء التى كنا مدعوين اليها فى قصر الملك مساء ذلك اليوم ، وفعلا استصدر من الوزير تصريحا بسفرنا فاصطحبنا مطوفنا بعد ذلك الى شركة السيارات ، ولكن مديرها أبى أن يسمح لنا بسيارة إلا أن يصله تصريح رئيس المطوفين وهذا الأخير حين عرضنا عليه حالنا تعنت معنا إلى حد كبير .

ولابد لى من أن أقف هنا وقفة طويلة استصرخ فيها حكومة الحجاز ألا تضع حرية الحجاج ومصالحهم فى يد هذا الرئيس ، وهو رجل طاعن فى السن ، ضيق الصدر ، قليـل الاكتراث بمصالح الناس وأوقاتهم ، فلست ترى مطلقا أى حاكم يعامل رعاياه بهذا العنف الذى يلقى به هذا الرئيس من يتقدمون اليه ، فهو يتخذ

مكانه فى غرفة يقف على بابها ثلاثة من رجال الشرطة يحجبون الناس عنه ولا يدخلون أحداً إلا باذنه ، فاذا دخلت عليه تجهم واذا كلمته سكت ، واذا نطق ثار ، واذا دخل عليه أحد المطوفين ابتدره بالسب والاهانة ، ووجه اليه من الإهانة مالا يخطر على أى بال . كنت اعتقد أن المسألة عنـــده مسألة نظام وحقوق فطلبت اليه التصريح لنا بالسفر فصمم على الامتناع ، فصارحته بأمر الوزير فأبدى عدم الاكتراث بهذا الامر ، فخرجت من عنده ساخطا على هذه المعاملة متأففا من تصرفه وشكوت الى اخوانى فرأوا أن أعيد مقابلة الوزير ، ولكن الوزير كان غائبا عن ديوانه ، فرأيت أن أتحامل على نفسى وأعود الى مقابلة هذا الرجل ، واستصحبت صديق الاستاذ زكى بك حسين ورجوته ان يصانع الرجل ، لأن نفسى لاتحتمل التحدث اليه بعد ما حـــدث ، ودخل من خلفنا مطوفنا فاشترط الرجل علينا ألا يحادثنا الا اذا خرج المطوف من بيننا . وبعد مناقشة طويلة صرح لنا بالرحيل ، فأخـذنا منه التصريح وذهبنا به الى شركة السيارات وكان ذلك فى الساعة الثـامنة من مساء يوم الثلاثاء واتفقنا على أن السيارة ستصل الينا قبيل الفجر ، فحزمنا أمتعتنا وقضينا الليل كله فى الانتظار ، وجاء الفجر ، ثم طلعت الشمس ثم علت ولم تحضر السيارة ، فذهبنا الى الشركة مرة أخرى ، ولكن المطوف لهوى فى نفسه استحضر سيارة تزيد حمولتها عن عددنا

وأوهمنا انه استصدر تصريحا لآخرين فركبنا جميعا وخرجنا الى ابواب مكة قبيل الظهر، ونحن راضون بما تم ، غاضون أنظارنا عما لقيناه من الإعنات، ولكن حارس الباب فى مكة منعنا لأن عددنا يزيد عن المصرح لهم .

فأى تصرف هذا الذى فعله المطوف والذى فعله رئيسه ، وأى عبث بالحريات وكرامة الناس هذا الذى ارتكبه المطوف أخيراً ؟ وبعد طول السعى انصرفنا بعد الغروب بعد أن ظللنا واقفين بباب مكة ست ساعات كاملة .

كل شىء جميل فى بلاد الحجاز حتى منازلها على بساطتها تبعث فى النفس روعة وجلالا ، وطعامها على قلة أنواعه يبعث فى النفس لذة وإقبالا . وهواؤها عليل وجوها جميل والمعيشة بها هادئة مستحبة ، ولولا أن الوقت ضيق لأطلنا المكث بها . فإن اهلها ذوو همة ونشاط وكل منصرف الى ما هو ميسر له . وليس فى مكة عيب إلا هؤلاء المطوفون ورئيسهم ونظام شركة السيارات بها ، ولو أن حكومة الحجاز عالجت هذا الموضوع وجعلت السفر حراً والطواف حراً لما وجد أى معترض اعتراضاً على مكة وما فيها، ولكان ذلك دافعاً للناس إلى الحج فيزداد عددهم كل عام ، ولكن هذه الطريقة العنيفة المذلة للنفوس الحابسة للحريات لها اسوأ الأثر فى قلة الحجاج فيجب أن يلغى مايسمونه « بالفسح » أو نظام « الفسح » حتى يطمئن الناس الى حريتهم

ولن يقلل ذلك شيئاً من النفقات التى ينفقها الحجاج فى كل عام. وإذا لم يك بد من تحديد يوم لا يسافر الناس قبله فلتترك لهم الحرية الكاملة فى ذلك اليوم فلا تتدخل الحكومة فى ترحيلهم وليس يجوز أن تستغل الفريضة على هذا النحو من الاستغلال.

ولا يفوتنى وأنا أغادر مكة ، متجها الى المدينة المنورة من طريق جدة الذى لا طريق سواه ، أن أنوه بأن الكعبة ليست هى المسجد الوحيد بمكة ، ففيها من المساجد الأثرية مسجد الاجابة الذى صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، ومسجد الصديق ، ومسجد البيعة عند حدود منى وكثير من المساجد الأخرى ، لكن الناس لا يقضون صلواتهم ولا تهجداتهم الا فى البيت العتيق كذلك لا يفوتنى أن أذكر أن بها دورا تاريخية كدار النبي عليه الصلاة والسلام فى سوق الليل ، ثم دار خديجة بنت خويلد ودار أبى سفيان التى تشغلها الصحة العامة الآن . وبمكة من الجبال : جبل حراء ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد فى إحدى مغاراته ونزل عليه الوحى أول ما نزل فيه .

غادرنا مكة على النحو الذى أسلفت ، واتجهنا الى جدة حيث تركنا بها الجزء الأكبر من امتعتنا ثم واصلنا السير الى المدينة واسترحنا بعض الوقت فى المحطات القائمة على الطريق فاسترحنا فى رابغ ثم قضينا ليلة فى آبار ابن حصانى حتى إذا طلعت الشمس أشرقت نفوسنا لدخول المدينة .

المدينة المنورة

طلعت الشمس وركبنا سيارتنا إلى المدينة المنورة ، ونحن ممتلئون فرحا وغبطة وجلست بجوار السائق،فأخذ يحدثنى عن المدينة وما فيها وقال لى بلهجة المؤمن الممتلىء بالإيمان انه لا يمل الطريق مهما تكرر ذهابه وايابه ، لأنه إذا ذهب إلى مكة تقبلته الكعبة المقدسة ، وإذا عاد إلى المدينة فوجهته قبر الرسول والصحابة ، فهو فرح فى الحالتين ، واستمر بنا المسير حتى رأينا على بعد مبانى تعلوها قبة عالية قال انها هى القبة الخضراء التى تظلل قبر محمد عليه الصلاة والسلام .

فذكرت اذ ذاك ان النبى صلى الله عليه وسلم ولد بمكة وشاءت الأقدار أن يلاقى ربه فى المدينة ، وذكرت قوله تعالى: « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » وأن المؤرخين أجمعوا على أنه صلوات الله وسلامه عليه ولد بمكة ولكنهم اختلفوا فى مكان مولده فقيل : انه ولد بشعب بنى عامر شرقى مكة ، وقيل انه ولد بدار محمد بن يوسف الثقفى ، وقيل إنه ولد بشعب بنى هاشم إلى غير ذلك من الروايات ،وذكرت بعد ذلك ما لقيه عليه السلام من أهل مكة وما اضطره إلى الهجرة إلى المدينة المنورة خوفا من أهل مكة

وحدثتنى نفسى بما يقال فى هذا من أسباب ، فقلت إن الله جلت قدرته الذى مكن له فى الأرض وأدان له رقاب الأمراء وهيأ له من السلطان ما نفذ إلى قلوب المسلمين جميعاً ومابعث فى قلوب أهل الكتاب احترامه والعمل بنواميسه حتى جعلوا أعماله نبراسا لهم وكتابه قانونهم فأخذوا عنه العلم والتشريع واهتدوا بهداه إلى الاختراعات العظيمة التى ملأت الدنيا حياة وحركة ، وسموا وسعادة ، كان قادرا أن يحفظه من طغيان أهل مكة ويتكفل بحمايته وحفظه من كل أذى ، فلا بد من حكمة سامية لهجرته إلى المدينة ليقيم بين أهلها ويقيم معه صحابته ، وأيقنت أن المدينة لا بد ذات سحر وجمال باهرين ، ووصلنا إلى مدخلها فوجدنا رجال الشرطة يرقبون كل سيارة تفد اليها ، ووجـــدت المدخل بوابة عظيمة البنيان ، وإذ جاوزتهـا شاهدت مبنى جميلا علمت انه محطة السكة الحديد الحجازية التركية ، ووجدت بها بعض القاطرات الواقفة والقضبان المهملة ، ولم أرد أن أشغل نفسى بمعرفة سبب تعطيلهـا ، لأنى كنت قاب قوسين أو أدنى من حرم الرسول فسارعت إلى الفندق حيث تركت متاعى واغتسلت وغيرت ملابسى ولبست الملابس البيضاء وسارعت إلى باب السلام فدخلت برجلى اليمنى ثم أتبعتها باليسرى ووقفت أمام قبره عليه السلام ، ثم قبر أبى بكر وعمر وقرأت دعائى عند كل منهم .

ولست أستطيع أن أصور لك ما عرانى من تأثر نفسى

وروحى،وما تصورته عند هذه المواقف ، فهى مواقف ليس إلى تصويرها من سبيل .

تصور أية رهبة وروعة تلاقيها وأنت فى هذا الموقف ؟ لقد كان المسجد بالغا أسمى آيات الزخرف ، وبالغا أسمى درجات الفن ، لكننى مع ذلك كنت مأخوذا بما هو أجل من ذلك ، بما لرسول الله من عظمة وجلال .

كنت مشغولا بتلاوة دعـــاء أخذ على نفسى كل إحساسها وشعورها ، وهو « السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته،أشهد انك نبى الله،وانك قد بلغت الرسالة وجاهدت فى سبيل الله حتى تم النصر لك ، قد وفيت عهدك وأمرت ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له » ولقد خيل الينا من جمال هذا الموقف وروعته أننا لسنا أمام قبر الرسول بل فى حضرته، وقد اعتقدت أنه يرانى ، وكنت أشد ما أكون شوقاً لرؤيته،ولم أشعر يوماً ما بمثل ما شعرت به من المهابة أمام قبره الشريف .

ولقد شاهدت أمام المقصورات التى زرناها حرس جلالة الملك يحولون بين الناس وبين التمسح بأسوارها النحاسية الجميلة ، ذلك لأنهم يخشون على الناس أن تلهيهم هذه المظاهر عن الحقائق ، وان تنصرف عقائدهم إلى أن هذا التمسح والتقبيل أثر من آثار العبادة ، ففى ذلك بدعة يعملون على ابطالها ، وقيل فى صدد هذا الموضوع إنهم كانوا يرون رفع هذه المقاصير وقصر

الحال على إبقاء القبور عارية كما فعلوا فى القباب التى كانت تزين مقابر البقيع ، لكى يعلم الناس ان التمسح بالنحاس والجدر أمر ليس من العبادة فى شىء ، بل إنه من البدع المنهى عنها ، ولكنى لست أدرى لماذا يحرم الناس من التمييز بين قبور العظماء وقبور العامة ؟ اليست الحياة كالموت ؟ واليس الموت هو الحياة ؟ فما بال الأغنياء يشيدون القصور كى يمتعوا أنفسهم فيها بما لذ من طعام وما جمل من الزينة ومايحقق أكبر رفاهية من الطنافس والأنوار ، وهم يعلمون أن العامة لا يبلغون من ذلك كثيراً ولا قليلا ؟

إن قبور الأنبياء والخلفاء والصالحين إنما تزخرف ويخلع عليها من الطنافس والكساوى ما يعتبر كتكريم من الأحياء لهم واشادة بما اضفوا على الانسانية من خير وإصلاح .

أليس الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وهم يختلفون فى درجات الحياة وبعد الموت ، فكما أن لكل إنسان نظاما فى الحياة الدنيا فكذلك لكل انسان مقام فى الحياة الآخرة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل مقامه فى حياته الأخرى فلا تثريب على الناس أن يجعلوا لهؤلاء الأموات الأحياء عند ربهم مقاما ظاهرا يعرف به فضلهم ليقتدى الأحياء بهم .

ومقام محمد لا يعلوه فى القلوب مقام ولا يبلغ كائن فى النفس مبلغه من التقديس والاحترام ، وما كان للقبة دخل فى هذا

التقدير وهذا التقديس ، لأنها فى نفس كل مؤمن صادق الإيمان سواء من رآها ومن لم يرها .

ما ضر لو بقى البقيع مميزاً فيه قبر عثمان وقبر ابراهيم وازواج النبى وحمزة والعباس والحسن بن على .؟ ما ضر لو ميز هؤلاء بين المقابر ، وما ضر لو أن هذا التميز رفع فى النفوس مكانهم وأبقى على الأيام ذكرهم ، فهم فى الواقع عليون فى الحياة وبعد الحياة .

وقبل مغادرتى المقصورة الشريفة أطرقت إطراقة أحسست فيها أن نفسى استضاءت إضاءة لا عهد لى بها من قبل ، وطفقت أكرر السلام عليه وأشهد أمامه ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك يا محمد عبده ورسوله ، وأمينه وصفيه ، وأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت أمتك وجاهدت فى الله حق جهاده وأقمت الدين وجاهدت العدو وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، ثم انتقلت إلى قبر أبى بكر الصديق فسلمت على خليفة رسول الله وصاحبه فى الغار وأمينه على الأسرار ، ثم انتقلت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسلمت على مؤيد الدين ومحطم الأصنام ، ثم انتهيت إلى الروضة الشريفة فأديت بها بعض الصلاة ثم خرجت إلى البقيع فزرت قبور الشهداء وأصحاب رسول الله والتابعين .

والحرم المدنى آية من آيات الله ، وعمل من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه لما نزل بالمدينة المنورة مهاجرا اختار

البقعة التى يقوم عليها المسجد الآن وأخذ أنصاره والمهاجرون يبنون عليها المسجد حتى أتموه، وكان أول بناء له بالطريقة التى كانت تعرف إذ ذاك، ثم زاد بعد ذلك فى سعته، وزاد فيه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والوليد بن عبد الملك، وظل هذا المسجد تتناوله يد الإصلاح فى أوقات مختلفة حتى أمر السلطان عبد المجيد بنقضه وإعادة بنائه على دعائم جديدة، وظلت عمارته عهدا طويلا ثم أتم ما فيه من زخارف ونقوش، ومنذ سنوات قليلة قامت الحكومة المصرية بإصلاح ماخشيت أن يصيبه الخلل من أجزائه.

وفى المدينة عدة مساجد: منها مسجد القبلتين، ومسجد الفتح ومسجد قباء وغيرها من المساجد التاريخية القديمة. ومن جبالها جبل أحد. ومن عيونها: عين الزرقاء، وعيون أخرى كثيرة يستقى الناس من مائها.

تلك هى المدينة المنورة، مدينة المصطفى النبى العربى الأمى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الإصلاحات التى تمت فى الأراضى الحجازية بعد أدائى الحج

أشرت فى سياق الكتاب إلى ما يلاقيه الحجاج من بعض المتاعب لاحتياج هذه البلاد إلى اطراد الإصلاح والتقدم العمرانى ويبهجنى الآن أن أسجل أن أكثر ما لاحظته قد تناولته يد الاصلاح ، وإنى أدون هنا هذه الاصلاحات فى قليل من الكلمات فإن مجرد ذكرها ، وانتفاع مئات الألوف من المسلمين بها منذ إتمامها لاشك اشادة بها وبمن سارعوا إلى القيام بها وهى :

(١) رصف طريق جده ـ مكة ـ عرفات

(٢) رصف المسعى وعمل مظلة له .

(٣) وضع مظلات (تندات) داخل الحرم المكى فى امتداد جوانبه.

(٤) وضع مكبرات للصوت فى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة وفى مسجد نمرة بعرفات لإذاعة القرآن والخطب والأذان .

(٥) توصيل مياه الشرب من وادى فاطمة إلى جدة والاستغناء بذلك عن الكندنسة .

(٦) تحويل طريق السيارات من رابغ إلى المساجيد تفاديا للمشقة التى كان يتعرض لها الحجاج بسلوك المنطقة الرملية بوادى « ابيار ابن حصانى » فى طريق المدينة .

(٧) وضع أنابيب للمياه فى عرفات ومنى ، محافظة على مياه الشرب من التلوث .

(٨) عمل رصيف جديد لميناء جدة ترسو عليه البواخر لتفادى المتاعب التى كان يلاقيها الحجاج فى ركوبهم ونزلهم .

النسك	الحنفية	الشافعية	المالكية	الحنابلة
النية	شرط	ركن	ركن	ركن
الاحرام من الميقات	ركن	ركن	ركن	ركن
طواف الافاضة	ركن	ركن	ركن	ركن
السعى	واجب	ركن	ركن	ركن
الوقوف بعرفة فى وقته	ركن	ركن	ركن	ركن
الوقوف عند الصخرات الكبار	سنة	سنة	سنة	سنة
خطبة الإمام خطبتين	سنة	سنة	سنة	سنة
الجمع بين الظهر والعصر فى عرفة	سنة	سنة	سنة مع القصر	سنة أو واجب
جمع المغرب والعشاء بمزدلفة ..	واجب	سنة	سنة	سنة
القدر الكافى للنزول بمزدلفة ليلة النحر واجب ووقته	ساعة قبل الفجر	لحظة من نصف الليل الثانى	بقدر حط الرحال فى أى وقت من الليل	لحظة من نصف الليل الثانى
رمى جمرة العقبة يوم النحر بسبع حصيات واجب ووقته	من فجر يوم النحر إلى فجر اليوم الثانى	من منتصف ليلة النحر إلى آخر أيام التشريق	من فجر يوم النحر إلى الظهر ويكره بعد ذلك إلى الغروب	من منتصف ليلة النحر

الذبح للقارن بعد الرمى	واجب	واجب	واجب	واجب
الحلق أو التقصير واجب وأقله . .	أخذ قدر أنملة من ربع الرأس	ركن	أخذ قدر أنملة من جميع الرأس	سـنة
الترتيب بين الرمى والذبح والحلق	—	سـنة	سـنة	سـنة
وقوع الذبح والحلق قبل ظهر يوم النحر	سـنة	سـنة	سـنة	سـنة
النزول إلى مكة لطواف الركن يوم النحر	سـنة	سـنة	سـنة	سـنة
المبيت بمنى ليالى التشريق	سـنة	واجب	واجب	واجب
رمى الجمرات الثلاث يوم ١١ و١٢ للمتعجل « واجب » ووقته . . .	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره فى الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفضله من الزوال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	كالشافعية
الترتيب بين الجمرات الثلاث	سـنة	واجب	شرط	واجب
الخروج من منى للمتعجل قبل المغرب	سـنة	شرط	واجب	واجب

مناسك الحج

رأيت ان أبين مناسك الحج على مذهب أبى حنيفة ، وهى كما يلى :

أركان الحج : الوقوف بعرفة فى وقته ، وطواف الإفاضة وكونه اربعة اشوط .

شروطـــه : الإحرام ، والتلبية معه ، ووقـوع السعى بعـد الطواف .

واجباته : الإحرام من الميقات ، والسعى ، والبدء بالسعى من الصفا ، واداء السعى ، والطواف مع القدرة ، والبدء بالحجر الأسود فى الطواف ، وستر العورة ، وركعتا الطـواف ، وتأخير صلاة المغرب مع العشاء ، والنفرة مع الإمام من عرفة ، والوقوف بمزدلفة ، ورمى الجمـــرات ، والحلق أو التقصير ، والترتيب بين الرمى ، والذبح .

سننـه : السعى ، وطواف القدوم ، وعـــدم الفصل بين السعى والطـواف ، وموالاة الاشـواط فى السعى والطواف ، والمبيت بمنى ايام التشريق ، وعدم تأخـــير الرمى الى الليل ، وتأخير طواف الافاضة عن الرمى . ومن أراد المزيد والتفصيل لجميع المذاهب فليراجع الجدول المنشور فى الصفحتين السابقتين وما نشر عن ذلك مفصلا فى غضون الكتاب

تمت الطبعة الاولى
فى يوليه سنة ١٩٥٠
مطبعة العالم العربي بالقاهرة
الادارة : ٥٣ شارع ابرهيم باشا (نام شبرد) ت ٤٤٧٠٦

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072535618